الفصل الثالث

عوامل تكوينه

تضافرت قوى كثيرة في تكوين الإلوري ، لأنّ الإنسان لا ينهض دفعة واحدة على ظاهرة معيّنة ، وإنما ينطلق من ظروف وملابسات عدّة ، يمكن أن نجملها فيما يلي :

- البيئة :

وفي مقدّمة ما يذكر هنا وسط عشيرته ، فقد شعّ من الله نور وهاج في عرقهم منذ اللحظات الأولى ، فكان جدهم عبد الله ينظر بثاقب عقله وضّاء ساطعا فيما أبداه من الشورى سواء في مولاه «أَتِبا» وما اختاره في الهجرة والإيابة ، وتجلّت شعائر الله في ذراريه ، ويليه ابنه حبيب جدّهم الأدنى الذي وضع بينهم القواعد العالمية : العلم والإمامة ، ولم يقلّ بنوه إلياس وعبد الباقي محافظة ومواصلة وملازمة منهج ابنهما ، حتى كملت تلك الأركان على يدي الإلوري ، فتوارثه أخوه وبنوهما ذكورا وإناثا . ومن المؤكّد أن والد الإلوري أشدّهم همّة وعناية ، إذ كان شغوفا بالعلم ، محباً لأهله ، مقدّراً مكانتهما تقديراً عظيماً ، وكم تمنّى من الله سبحانه وتعالى أن يرزقه ولداً صالحاً يكون من أعلم زمانه ، ولم تكد دعوته تلبى حتى قام برعايته قبل أن يرسله إلى حيث يكمل نبوغه منذ نعومة أظفاره .

وتلت هذه البيئة بلدة (وسا) مولده ، وإذا لم يطل بها ؛ فقد تركت فيه آثاراً بالغة ظلّ على ذكرها خصوصا صفاء أهلها ورقّتهم وبساطتهم في مناكب الحياة ، وما كان لها من حدود متاخمة لمدينة (دند) و(جوغو) الشهيرتين ، إذ

هما من أعمق قبيلة بربر بناة الحضارات الأولى ، والمملكة العظمى ، وإحدى ولايات صنغي وغيرها كثير من المؤثرات التي خلقت تلك البيئة مقرّا دائما لإيواء العلماء الوافدين بين الشمال والجنوب ، ومن الثابت ؛ أنّ هذا الجوّ قد علق في ذهنه ، وعمل في اتجاهاته .

وأما « إلورن » ؛ فمدينة آبائه التي صنعت على أرضها تاريخاً مجيداً منذ أن حققت إنجازات خالدة ، وأجدرها بالذكر إقامة الإمارة الإسلامية التي هذّبت مملكة يوربا فأعادتها إلى نبوّة ورحمة لاعتناق الملك « أتبا » صالح الإسلام ، ومع قرب عهد نشأتها؛ فقد سبقت جيرتها القديمة الخربة كَإِكَوْيِي ، وإِكُهَوْ ، وربوة السنة ، وسَوْ ، وكما آوت من انتقل إليها من سكان مَيْغِدا ، وأَلَبا ، وأَوْبُوْنْدَوْرَوْكَو[1] ، ورَيْكَي ، وأَمَيَو[2] ، ونافست أخرى عامرة ككنو ، وكتسنة ، ودورا ، وكبّ ، وصكتو ، وغوند ، وكذلك ضارعت مراكز إسلامية قديمة ، كغانة ، ومالي ، وصنغي ، وبرنو ، وكانت تقوم بدور التوصيل الفكري للثقافة الإسلامية بين تلك المراكز ، وبين ما وراءها كإبادن ، وإكرن ، وإوو ، وأوشوبو ، وأبيكوتا حتى المحيط الأطلسي ، وأجاشي (بنين) ، منذ اختارها الشيخ صالح (عالم) بن أحمد بن جنت منطلق الدعوة الإسلامية ، ثم صارت حاضرة الإمارة ودار الإسلام على يد بكر العالم عبد السّلام (مرآة الدنيا) عندما بويع أميراً للمسلمين ، فبنى معاهد علمية ، ومحاكم شرعية ، ودور فتاو ، وحلقات الوعظ والإرشاد ، والزوايا وغيرها من أسس السياسة الشرعية في منظور الإسلام .

ومن ثَمّ أصبحت إحدى ولايات المنطقة الغربية التابعة للخلافة الإسلامية بصكتو[3] . ولم يزل الأمير يعمل على تعبئة الجنود لحماية الثغور والحدود من الغارات ، وإرسال سرايا عدّة لتأمين الأمّة ، واستقرار الدعاة والفاتحين ،

---

(1) وهي أكبر ضاحية للاقتراب إلى إلورن في حقول العلم والدعوة والتدريس ، فقد زارها الأعلام ، ومن بينهم صاحب الدعوة الشيخ عالم وتاج الأدب وكوكيهوكوبيري.

(2) Alhaji Shafi Jimba, A SHORT HISTORY OF ILORIN

(3) كان ذلك في عهد الأمير خليل بن عبد الله بن فودي رحمة الله عليهم جميعاً.

والنساك ، والزهّاد ، والدعاة ، والأدباء ، وحقّقُوا انتصارات رائعة في معارك (أَوْغَيْلَيْ) ، و(بَرْقُو) ، و(أَوْفا) حتى قرب (إِكِرُنْ) ، ومن قبل استولوا على (أَويولي) عاصمة يوربا ، وإذا اقتضت ظروف الجهاد تخريب هذه المملكة القديمة لأنها دار كفر حينئذ ، فإنّ أولئك القادة قد شاركوا مشاركة جليلة في بناء بديلها الجديد ، ومن بعد واصل خلفه المسيرة الأمير شئت ، فنهض بتخطيط المدينة مركز إشعاع للعلوم والمعارف حين استقدم علماء من كافة أنحاء البلاد ، ورغب فيها كثيراً حتى أبناءه ، ومن بينهم نجلاه محمد ومحمود اللذان أصبحا آية الملوك الزهاد ينفيان الإمارة للعلم ، والمعرفة ، والدين ، ولم يلبثا حتى صارا من عباقرة البيان والأدب في المنطقة ، وقد ظلّت هذه السنّة موروثة لديهم يحملونها مسئولية نيطت بالمدينة لتنهض قوّة تهيمن على الدين الحنيف لتطبيق شريعة الله ورعاية مصالح العلماء والفقهاء ، والطلاب ، وسائر الناس ، وعلى هذا الأساس أصبحت المدينة قبلة للإسلام وثقافته العربية ، فهاجر إليها علماء كبار من مناحي الشمال ، وبلاد النيجر ، وبوركينافاسو ، ومالي ، [1] ودَنْدَيْ ، ونِيْكِي ، وجُوغُو ، ولا يحصى عدد من اتّخذوها منطقة العبور بين طول البلاد وعرضها ناشرين العلم والثقافة والأدب ، فضلا عمّن نفرُوا إليها من المسلمين المضطهدين من قبل الأعداء زرافاتٍ ووحدانا ، وبهذا أضافت جزءاً استراتيجيا إلى الخارطة الإسلاميّة ، ثم طمع فيها الاستعمار البريطاني ، وقوض أمجادها وأعمل دباباته الجائرة في أعناق جنودها المسلمين ، وتدفّق إليها أمواج التبشير والتنصير ، وحرص عليها ساسة عنصريين ، وربط في قوائمها قواعد الكسل ، والفاقة ، والفقر ، وأذاقها ويلات أشدّ مما قاسته أخواتها إذ تمزّق داخلها وخارجها شرّ التمزّق ، فأمست ساحة فسيحة للصراعات الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وموجة الاضطراب ، والقلق ، والرّعب ، على حين كانت قبلا ربيعة الأمن والرخاء والاستقرار .

---

(1) ولا يزال ذراري بعض عشائر هذه المدينة يعتزون بانتمائهم إلى تلك البلدان .

ومهما يكن الأمر ؛ فقد تأثّر العلاّمة بهذه البيئة المتدهورة بين الماضي المجيد والحاضر التليد ، فكوّنت فيه إحساسا عميقاً حتّى يتحرّر شعبه المسلم من المحططات الاستعمارية والمسيحيّة ، وينهض إلى ما بناه الأجداد والآباء .

ونذكر بجانب « إلورن » من أخواتها الشمالية خصوصا « غوند »، و« صكتو » ، و« كشنة » ، و« برنو » ، و« زكزك » ، و« كنو » ، وساي ، فقد أذكت هذه البيئات العريقة في قلبه صحوة وقّادة من خلال الآثار العظيمة العريقة ، إذ وقف بها وقفة بارعة ، واهتمّ بدراستها فعمق بها أفكاره ، وآخت تلك الأمجاد والمكارم أواصر ثقافية بينه وبين الأمراء أمثال هارون الرشيد بغوند ، وأبي بكر الثالث بصكتو ، وجعفر بزاريا ، ومن الأدباء الوزير جنيد ، والشيخ محمّد الناصر الكبري ، والدكتور علي أبي بكر ،والأستاذ الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنث، والقاضي أبي بكر جومي ، والشيخ إبراهيم صالح الحسيني ، والدكتور القاضي سعيد غروزو ، والقاضي عبد القادر أوريري ، والسفير عبد القادر أوكيكيري ، ومن الساسة الزعيم سردونا ، والوزير موسى قشاش ، والرئيس جنرال غون وجنرال مرتضى محمّد ، ويرأدعا ، والرئيس علي عثمان شاغاري ، والجنرال محمّد البخاري ، وشريكه الجنرال عبد الباقي إدأبن ، فتميّز من بين أضرابه واعيا بما يدور في عالمه ، بل تخطى حدود الإقليم ، فصار مدافعا حامياً ذمار أنسابه وأحسابه أمام تحدّيات الإنكليز يتجلى ذلك في سلوكه واتجاهه .

ولا ننسى دور مدينة « إبادن » إذ تمثل المركز الجنوبي اليوم في تفعيل موهبة الإلوري ، ذلك بأن الخطين الثقافيين اللذين امتدا من إلورن ينتهيان إلى إبادن ، أحدهما انطلق من أوكي السنة ويمر بإِكُهَوْ ثم إِسَيِنْ ، ثم يأتي من أَوَبَوْمَشَوْ إلى أَوْيَوْ فإبادن ، بينما ينشأ الآخر من إلورن فأبونّدوكو ثم أوفا ، وأَوْشَوَبَوْ وأَيْدَيْ ، فينتهي إلى إبادن ، فقد سكن فيها أثناء تلقيه العلم على شيخه « أسنيوبوا » ، ولم يزل عهده بها للتثقّف والتنوّر ، ومن المؤكّد ؛ أنّ هذه البلدة عندئذ أكثر تضافرا في الخط الجنوبي من بقية أخواتها في حماية تراثنا

الإسلامي ، ونشر مزاياه منذ أن اشتهر أهلُها باقتناء الكتب ورعاية العلماء وإيوائهم وإيفاد المتعلّمين إلى أقاصي البلاد وأدانيها ، لتحصيل ما يحتاج إليه المواطنون[1] ، وهي اليوم قد أصبحت من أخطر خنادق للصراع الديني بين الإسلام وسائر الأديان الأخرى ، وكذلك تمسكهم بالفقه المالكي ، وعقد سلسلة الحوار بين المفتي والمستفتي ، واعتنائهم بالمدائح النبوية[2] ، فكان ذلك عاملاً قويًّا في توعية الإلوري ، ففتح أمامه آفاقا رحبة لتكوين عقله ، وإيقاظ وعيه تأهّبا للأمور المستقبلة .

ومن تلك المناطق التي أسهمت في تنمية ذاكرته « لاغوس » عاصمة نيجيريا الاقتصادية ، فقد ظلّت ولا تزال منذ دورها السياسي مركزاً ثقافيّا ، تتلاقى فيها العناصر المتعدّدة الفكرية ، منها :

- التيار الإسلامي الذي وفد به علماء إلورن ولا يزالون عند مرورهم يتلاقون بإخوانهم يوربويين وفلانيين وهوسويين .
- التيار العربي هو الذي استقدمه تجار العرب الذين يكتظون في المنطقة من جراء الظلم والاضطهاد والاستقلال التي يقاسونها في بلادهم ، ولما أطلق أسرى الحربين العالميتين في سيراليون لقي العرب منطقة حرة قدموا إليها كما تسلل بعضهم إلى لاغوس عند امتلاء الوظائف الشاغرة .

---

(1) ومن ذلك استشهاد الشيخ هارون في سبيل العلم ، ولم يثنهم عن إيفاد الآخرين إلى مراكز زمانهم ، وقد نفر ابن الكرسي وأَلَكَا إلى إلورن ، ثم عادا من نوابغ الأدب والبيان إلى جانب عديد من العلماء المغتربين من شمال نيجيريا وأقصاها ، كغانة ، ومالي وبرنو وصنغي ، ممن اتخذوا هذه المدينة رباطهم الدعوي والعلمي ، وفي مقدمتهم عثمان باسنو معاصر الشيخ عالم والجد الأعلى للإمام أحمد المحلي ، وقد غدت هذه العادة مستقرة بينهم حيث يربو عدد الذين قدموا من إبادن وحدها إلى البلاد العربية ، وخاصة السعودية على جميع من نفروا إليها من نيجيريا كلها بأضعاف مضاعفة لتلقي العلم والثقافة.

(2) وبلغ أن أطلق على أحد الجيران المشاهير حي « العشرينيات ».

- التيار الاستعماري وهو الذي يقوده الاحتلال البريطاني وصحبه التنصير صحبة الانتهاز ، وأصبحا يتعاطفان على فرصة الشعوب والقبائل .
- التيار الوطني فهو الذي استولى على عقول المواطنين لإنقاذ الأمة والتراث والمجد من أنياب الاحتلال ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ومهما يكن الأمر فإن بيئة لاغوس قد أمدت حافظة الإلوري قدرة أدبية مرنة كيفيته على تبادل الآراء والمنافع والمصالح بما يلائم الواقع والحال لا سيما حب العرب ، وأشهرهم عبد الكريم المرادي الطرابلسي ، الذي أسّس معهداً إسلاميّا للتعليم بها[1] ، وبكنو ، ومن تلاميذه الحاج أبو بكر «أوتن» ، وعبد العزيز «أوشوكو» ، وإسكندر ، وكذلك الأستاذ مصطفى الشامي الذي استرعى كتابه «مفتاح اللغة العربية» انتباه كثير من الدارسين ، وتلتهما جاليات ليبية ، ومصرية ، ومغربية ، وسورية ، ولبنانية ، ولاسيما آل الدبس ، وأخيراً توالت إليها سفارات دول عربيّة وإسلاميّة ، ففتحت ملاحق دينية تنفذ منها إلى بثّ برامج دعويّة وتنشيط رجالها ، وتهيئة الجوّ الملائم للراغبين في التعلّم والتثقّف في عقر ديارها ، ويعدّ الإلوري من خيرة من اغتنم هذه الفرصة إذ توطّدت بينه وبين هذه لسفارات علاقات وثيقة في شتى المجالات والميادين[2] . فدعم عقله نابها بما يدور في العالم الإسلامي من قضايا وتيارات ليست في حقول العلم فحسب ، بل امتدّت إلى ميادين مختلفة في الدعوة .

ونذكر في هذا السلك الصحوي مدينة «أبيكوتا» ، وهي أسبق بلاد يوربا إلى تطوير الثقافة العربية في العصر الحديث ، نتيجة تمركز كثير من العلماء الوافدين إليها على امتداد مناطق نيجيريا ، والسياح القادمين من الشرق العربي ، وأمريكا اللاتينية ، ومن بينهم الشيخ الوزير محمد الأطركمي البرنوي عقب

---

(1) ومن أسعد الملاحظات أن عام نشأة المدرسة في أبيكوتا ١٩١٧م يصادف مولد الإلوري .

(2) ومن أبرز هؤلاء السفراء ؛ عثمان نوري لمصر ، وكامل الشريف للأردن ، وعلي صقير للسعودية ، ومحمد السعدي للمغرب ، وعبد الستار التلي لليبيا.

عودته من الأزهر الشريف ، وأحمد الرفاعي إندا صلاتي ، وأحمد بن أبي بكر إكوكورو ، ومحمّد جمعة اللبيب بن عبد القادر «تاج الأدب» ، وتلاميذه من أمثال الشيخ سلمان أكي ، والشيخ محمّد كمال الدين ، وكذلك آل دند ، إلى جانب عديد من مواطنيها العلماء ، ومن قبل كانت على حدود متاخمة لزوغو ، ودند ، وبرقو ، وغيرها من تلك البلاد التي نشأت في أصل أمرها ممرّ قوافل تنطلق بين غرب أفريقيا وشمالها ، ولم تلبث حتى أضحت مهاجر العلماء من «غانة» و «مالي» ، و«صنغي» ، و«تمبكت» ، و«جنى» ، ونجب بها كبار العلم والثقافة من أمثال محمد غالي ، وابنه مسلم الدندي ، ومحمّد الرفاعي أولوفاكن ، وصلاح الدين أوكيكي ، وسراقة أيوديجي ، وعلى هذا الأساس استهدفت البقعة كنائس على اختلاف أشكالها لتنفيذ برامجها ، فنشأت للدفاع عن الدين الحنيف هيئات إسلامية كبرى ، كأنصار الدّين ، وأنصار الإسلام ، وأنوار الدّين ، والزمرة الإسلامية ، لمقاومة حركة التنصير ، وأدّى الأمر إلى نشوب نزاع مرير بين المسيحية والإسلام ، وقد شارك الشيخ آدم تلك الهيئات في نشاطها الدعوي ، ونظم أوّل ندوة ثقافية دعا إليها أجلة العلماء من مختلف البلاد لتحسين أحوال المسلمين العلمية ، والسياسية ، والفكرية ، ثمّ أنشأ فيها مركزه الذي لم يمكث بها إلاّ ثلاث سنين قبل أن ينتقل إلى أغيغي ١٩٥٤م .

وعلى الصورة العامة ؛ فإنّ نيجيريا وما حولها من القرى والمدن والحواضر بغرب إفريقيا تحمل مؤثّرات قويّة في عقليته[1] ، وهي بلاد غذّتها روافد ثقافيّة حديثة ، ويمثّل الاستعمار الإنكليزي أبرزها حيث بسطت قوتها على المنابع العلميّة ، وإن وقعت في المرحلة الأولى معولا مدّمرا للتراث الإسلامي ، إلاّ أنها أصبحت ضرورة علمية إذ لم تتخلف منطقة من مناطق البلاد إلاّ وضربت جذورا عميقة في نفوس أهلها خصوصا عندما قرّرها الحكم الأجنبي لسانا

---

(1) وكتبه: الإسلام في نيجيريا، وموجز تاريخ نيجيريا، ومصباح الدراسات الأدبية لم يقتصر عنايته فيها على نيجيريا وحدها بل تناولت غرب إفريقيا ، وأشادت بأمجاده الخالدة .

رسميا في دوائر الحكم والعلم وسائر مناحي الحياة ، ثم اتخذها التبشير أحبولة اقتناص المسلمين ولاسيما شبانهم ، وبناء على ذلك أقامت المسيحية كنائس ضخمة ، وأسست إلى جانبها مدارس عدّة ، وشرعت لأهلها مجالس التبشير ، وأعدّ معاقل تدريب رسلها على المحاجة والمنطق ، ليتمرّنوا على إفحام أعدائهم ، واعتمدت في بثّ هذه البرامج العدائية ، وتفاقمت بعد عودة « صمويل أَجَي كرودَ » إلى البلاد ، فوضع حروفا لاتينية لكتابة يوربا[1] ، وعدلت جميع ألسنة قبائل نيجيريا المسلمة إلى الخطّة نفسها . واستعملت عناصر ثقافيّة لتعزيز مواقف التنصير حتى تخلب عقول المسلمين لإقصائهم عن دينهم ، وحينئذٍ أصبح الإلمام بهذه الروافد الأجنبية حقًّا ، ووجبت معرفة ما في خلد المسيحية ، وتتبّع مخططات التبشير ، وما تحكيه حركاتها من مكائد . وعلى ضوء ذلك حذق الإلوري بعناية كبيرة ما لدى الآخرين من أهل النِّحَل خصوم الإسلام من أصناف معارفهم التي تمكّنه من مقاومتهم ومنازلتهم ، فجعلته نوعاً متميّزاً من بين أفذاذ العلماء الذين تملكهم البلاد للنهوض بمهمة الدفاع عن الإسلام ومعاقله وتراثه[2] .

وإلى جانب هذه العوامل الثقافية تجدر الإشارة إلى أسفاره ورحلاته وسياحته وتجولاته عبر المناطق المختلفة ، وهي أثارة علم عن والده وأساتذته المواطنين ، إذ لم يظلوا في معايشهم على منبت شعبتهم ، فخرجوا جميعا إلى مدن وقرى منخرطين في مفاوزها وغاباتها لتعليم النّاس وإرشادهم ، وتثقيفهم وتوعيتهم ، وتأثّر الإلوري بهذا الاتجاه تأثّرا عميقاً ، وكان مددا هامًّا لثقافته إذ كشف له أبوابا كثيرة للاتصال بالشعوب والقبائل ، وعرف أشكال أديانها ، وأفكارها ، وطبائعها ، وما يتواضع عليه أفرادها وجماعاتها من

---

(1) بديلة بـ« عجم »، وهو ما اخترعه العلماء المسلمون عند الكتابة على الخط العربي.

(2) يشهد على ذلك ما نشره في المجلات والصحف والجرائد والنشرات وأمثالها هنا: « Daily Times New Nigeria. National Concord »

عادات وتقاليد ، فتهيأت له شمولية الإدراك ، وإحاطة ما لا يمكن جهله تغذية لعقله ، وفكره ، ووعيه ، وعلى الصعيد العالمي ؛ فقد اقتبس من مراكز علمية كبرى في مالي والسنغال ، وغانة ، ومصر ، والسعودية ، والسودان ، وليبيا ، والمغرب ، والأردن ، والهند ، وإيران ، وبعض أقطار أوربا ، كبريطانيا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا[1] ، وخلال هذه الرحلات الثريّة انعقدت أواصر ثقافيّة بينه وبين رجالات الفكر الإسلامي والبيان العربي ، فدعم عقله بتيارات لسانية ، وعلمية ، وأدبية ، تشهد له نباهته في آثاره العديدة التي رفعته إلى صفوف المجيدين من ذوي الصدارة بين العلماء المعاصرين على حين كان من أمثاله الذين تلقّوا علومهم من سواري الدهاليز ، والجوامع لا يزالون يلقون عبئا ثقيلاً في التكيّف مع عناصر أخرى ، فثبطت عزائمهم عن التثقّف ، والتنوّر خصوصا عند الحوار والإبداع مع طول ممارستهم وهضمهم لمتون كثيفة استأثروها من قواعد نحوية ، وصرفية ، وبلاغية ، وعروضية ، وأدبية ، ولكنهم عند ممارسة التأليف يعجزون عن تحرير بيتٍ أو تركيب جملة جيدة التعبير والتصوير ، ويتخيّلون كأنّ جبالا ثِقالا جثمت على صدورهم ، وإذا لم يكن في مقدورنا إحصاء تامّ لجميع من لقيهم عبر رحلاته العلمية ، وكانت لهم سمة بارزة في اتجاهاته ؛ فإنّنا نقول على سبيل المثال لا الحصر ؛ إنّه تأثّر في التعليم والتربية برجالات الأزهر الشريف ، أمثال : مصطفى عبد الرزاق ، ومحمود أبي العيون ، ومحمود شلتوت ، ومحمّد الفهام ، والدكتور محمّد بيصار ، والدكتور جاد الحقّ ، وفي البحث والتأليف سار على نهج السيوطي ، وابن خلدون ، وعبد الله بن فودي ، والغزالي ، وشكيب أرسلان ، وأبي الحسن علي الندوي ، وفي الطلاقة والبلاغة بالجاحظ وابن رشيق القيرواني والسكاكي ، وفي الخطبة والبيان بمصطفى المراغي شيخ الأزهر ، والحسن البنا ، المرشد

---

(1) انظر : رسالته إلى أساتذة المركز عام رحلته إلى أوربا ، مكتبة المؤلف الخاصة ١٩٨٠م - ١٤٠٠هـ .

العام للإخوان المسلمين ، والشيخ محمّد أمين أغاكا ، و« سرمي » ، و« باباتا » ، وفي التصوّف والزهد بمحمّد المبارك ، وأحمد الفاتح قريب الله ، وعلي المرغني في السودان ، والشيخ محمّد الناصر الكبري . وفي لدعوة والإرشاد ؛ الإمام المغيلي ، والشيخ أحمد إندا صلاتي ، والشيخ محمّد كمال الدّين الأدبي ، وعزّ الدّين عبد السّلام . وفي الصحوة الإسلامية الأمير الشيخ عثمان بن فودي ، والإمام صالح بن أحمد بن جنت ، وبنوهما ، وجمهور إخوان المسلمين ، وأمناء رابطة العالم الإسلامي من أمثال الشيخ سرور الصبان ، ومحمّد صالح القزاز ، وعلي الحركان ، والدكتور عمر نصيف[1] .

عامل الجنس

لقد ضمّت الإلوري بنية الأسرة على مناقب حسنى تكونت فيه عناصر النبوغ للعبدلين ، فقد أنبتهم جدهم الأعلى زرعا طيبا وتولى تنميتهم الجد الأدنى حبيب الله على القيادة الإسلامية من إمامة ، وتدريس ، ودعوة ، فاتخذ الجبهة الداخلية ، وجعل رباطه أدبي ثم امتدت به المسيرة فانطلق إلى أمد ولم يقل بكره عناية فحافظ على تراث أبيه في الإمامة والتدريس وإن قلّ اهتمامه بالبيان العربي عما غرسه أبوه حين تلقى على فصحاء عصره ، ثم أتى الله بالوالد عبد الباقي فتوجه إلى أبعد ما في المنطقة والإقليم بل ضرب أكباد راحلته للنفوذ إلى العالم الخارجي فتم ما يصبو له فتكامل لديه الفكر الإسلامي والبيان العربي ، وإذا لم يستطع على استيعاب عمق ، وثراء لما يطلبه . فقد ترك تلك الثغرة لبنيه فجعل الإلوري كوكبهم الوهاج ، فتلاقت لفيته العزائم من عزم وحزم وما توارثه من حماسة وقوة قد جعلته رائدا قديرا على ربط الغابر والحاضر والقابل ، ومرة أخرى فإنه يحمل عرقين في ذاته وكيانه « يوربا » أباً ،

---

(1) راجع أمثال : نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء يوربا ، ولمحات البلور في مشاهير علماء إلورن .

و«بربر» أمّا» ، وهما من الأعراق الجليلة في البلاد ذوات أمجاد عظيمة ، وقد شارك كلا الشعبين في إقامة دول غرب أفريقيا ، ثم بنيا على أراضيهما مآثر حضاريّة . وتأسيسا على هذا ؛ فإنّه قد ورث من الأوّل قدرة الذكاء ، واستعمال الحكمة ، وحبّ العلم ، والاستطلاع ، والتضحية المثالية في التحصيل ، والإنتاج ، والإبداع ، وكلّ ما يغرس حبّ المعرفة في الإنسان ، ويكسبه الغنى ، والاستغناء ، والحرية ، والاستقلال ، والاعتزاز ، فقويت غريزة تفكيره ، واستنباطه ، وقياسه ، وأعانه على إضافات جميلة في مناكب الحياة .

وحقيقة ؛ إنّ ليوربا إيماناً قويّا في أخذ الأمور بأسبابها في كثير من المواقف، ثم الأقدار ، وكانت تكره كراهة شديدة الكسل ، والخمول ، وتؤثر الجدّ ، والكسب ، وحرية الرأي ، والفكر إباءة للضراعة والمذلة والرعونة ، وقد امتزج هذا العرق بدمه امتزاجا قويّا ساعده على مداومة التحصيل ، ويستلذّ صعود معارج صعبة لنيل منابع العلم والمعرفة ، فيمرّن عقله ، ووعيه بنتزعاً انتزاعا المفكّر المنتج لضروب الثقافة الواسعة ، وإذكاء العزيمة الصادقة في تحقيق الهدف ، وإصابة المغزى ، ولعلّ من أسرار جودة أسلوبه انتماءه إلى لهجة «أويو» التي تحتلّ اللغة النموذجية ، وهي «عدّة الشعراء»، ومستودع الخطباء ، وميدان البيانيّين ، يعرفه الشعب اليوربوي على اختلاف المشارب ، ويتخيرها منشئوهم ، ويتعارف عليها نقادهم نماذج حيّة من الأنماط الأدبية ، والفنيّة العليا[1] .

وكذلك استفاد من جهة أمّه «البربر» ميزة الشجاعة ، والإقدام ، وإتقان الصناعات المختلفة ، والأنفة ، وعزّة النفس ، والاعتداد بالحسب والنسب ، وعلى امتزاج هذه العادات والطبائع عظم تكوينه ، وألهمته القدرة الواسعة على قياس الأمور ، واستنباط المسائل ، وكشف المجاهيل ، ولعلّ أبرز ما يذكر كلّه تمكنه الشديد من نعمة التحليل والتي أقدرته على التفكير والتأمّل ، فانطبع

---

(1) الأستاذ مصطفى زغلول السنوسي ، أزهار الربا في أخبار اليوربا ، ١٩٨٧م ، ص٤٠.

إنتاجه غزير المادة ، وفير العقل ، قوي الحجة ، والبرهان . ويقتضي الأمر أن نتبع ذلك على أبعاد الخارطة الحضارية في البلاد .

اللهم إلاّ أنّ تكوينه لا ينحصر في تراث الشعبين : (يوربا وبربر) فقط ؛ فقد تأثّر بفلانة ، وهوسا ، ونوفي ، وأعجب بعلمائهم ، واحتذاهم في كثير من المواقف والاتجاهات خصوصاً آل فودي ، وآل جنت وذرياتهم بصكتو ، وإلورن ، والسودان ، والسعودية ، فكانت عقيدته التي ناضل فيها إعادة الخلافة الإسلامية شرعة ومنهاجا ، التي نبعت من جهود أولئك العظماء السابقين قبل سطوة الإنكليز على البلاد ، حيث اقتحم الحاكم لَوْرِد لَوْغَارد غواربها ، وكثيرا ما يرى نفسه خليفة لآدم « كَرَا »[1] لإيقاظ الجنود المسلمين من رقدتهم ، وإحياء انزحف المقدّس إلى المحيط الأطلسي ، ويعدّ ممن اقتدى بهم علماء البرابرة ، ولا ننسى أنّه تلقى علومه في المرحلة الأولى على يدي الشيخ صالح ابن محمّد الأوّل « أسنيوبوا » ، وعمر بن أحمد الإلوريّين ، وهما ينتميان إلى البرابرة تلك الشجرة الركية من أصل عربي ينتهي إلى موسى الأبهجي من سلالة الإمام علي رضي الله عنه ، ثمّ نماج الكنوي الهوسوي من عرب ليبيا عن طريق غدامس[2] .

وواضح ؛ أنّ تلك المآثر قد جعلته معدودا في أعلامنا الذين سعوا سعياً حثيثاً للتقريب بين قبائل نيجيريا ، وحاولُوا التحفّظ الحكيم من التردّي من مهالك العصبية ، فرأوا أنّ كلّ قبيلة ذات مناقب ربما لا تملكها جاراتها فلزم الترابط والتراحم لتحقيق المصالح والمنافع .

---

(1) وآدم كرا الأوّل ؛ أحد قواد المجاهدين من قبل إلورن ، وقد استشهدُوا شراء نفوسهم لله أمام دبابات الإنكليز خلال ١٩٠٠/١٩/ ٢١٩٠م.

(2) نقلا عن عشيرته بكنو ، عام : ١٩٩٨م.

المزاج :

ركّب الله في مزاجه حساً مرهفًا ، وشعوراً ثاقباً ، تولاه المولى جلّت نعمه فألقى في قلبه نوراً وهّاجا يهتدي به في ظلم الحياة ، وأنّه بقوة هذا الإلهام الإلهي يتبصّر أسرار الكون ، فيصوّر حقائق منها قبل وقوعها ثوابت مقرّرة ، ساعدته على إعمال فكره،فجعل للعقل سلطانا كبيرا في مراحل حياته العلمية، وكان منذ طفولته الأولى ذا بصيرة نافذة بدقّة الأحداث ، يتتبع الوقائع ، وكثيراً ما يستمع إلى والده فيحفظه ما وعاه من أنساب ، وأحساب ، وسير ، وأيّام ، وقصص ذات صلة بحياة الأعلام العلماء ، والفقهاء ، خصوصا ما شاهده من تطوّرات الحياة قبيل إسقاط العزّة الإسلاميّة على يدي الاستعمار ، وكوّن لنفسه ذوقاً مدرّباً ، وعقلا واعيا ، يفطن إلى تمييز الحقيقة ، وتقرر في سيرته أنّه لا يتلقى علوما وأخبارا ووقائع إلاّ من مصادر صحيحة مستنداً إلى المعرفة العميقة ، ويهتدي بنور التعليل لإثبات ما بين الأسباب والنتائج من وجوه وملابسات ، ويؤثر التحليل الضافي على الشرح الموجز فيدرك الدقة المتناهية ، وقد آتت تلك ثمرة عظيمة على أشكال متعدّدة غير محصورة في ناحية معيّنة ، وفي ذلك يقول :

« وكنت أناقش أترابي وأصحابي ، وأناظرهم في المباحث العلمية لإظهار الحقيقة حتى عرفوني بالجدل ، وصاروا يخشون لقائي ومناقشتي في المسائل الفلسفية[1] .

ساعدته تلك القوى العقلية عند الاحتكاك بمجموعات عديدة من الوافدين العرب والسناغلة ، والشناقطة لا سيما العائدين من الأزهر الشريف إلى ديارهم والنازحين فرارا من اضطهاد الأتراك قبل قدومه إلى مصر وقوى ذلك ضعفه عندما اقتضى الأمر مناقشته لنيل الشهادة بالأزهر الشريف .

---

(1) الإلوري لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، ١٩٨٢م ، ص : ٨٨ .

ولما كبرت سنّه؛ دلّت التجارب على عمق فكره، وتوقّد عيه ورجاحة عقله، وأنّه يميل كثيراً إلى منهج التعادل في الحكم والاستنباط، خصوصا فيما يتعلّق بقضايا الجدل ومناهجه، ومواطنه في المباحث العقدية، والفقهية، والفكرية، والأدبية. وإيمانا بالقاعدة التي يعتمدها، أن القياس مظهر من نعم الله العقلية يمارسه كل الفرق الإسلامية مستنبطين من الكتاب والسنة، فأحرى بالجميع تقدير اختلاف الأذواق واحترامها لسلامة الاجتهاد والاستنباط، فإذا اعتدى بعض على بعض، فإن ذلك محاسدة ومباغضة، وكلهم جميعا على هدى من ربهم، فلا أحد سلم من الزلة، ولا أمن من الهفوة.

وقد دعّم هذه القدرة العقلية الواعية بسعة الاطلاع، وكثرة القراءة، يواظبها ولا يسأم منها، ويعكف عليها، ولا يفتر عنها، وقد وصفه أحد أصدقائه:

«كنّا نشفق عليه إشفاقاً كبيراً عندما يظلّ على تدآب المطلعة، والتحصيل، ولا تلهيه عنه شواغل الحياة إلاّ ضروراتها، ولا تحول دونه وعوارض الظلام فإنّه قد جعل القمر مصباحه، وعند المحاق يحل ذاكرته كتبه وحافظته مكان رسائله[1].

وشاع أنّه كان يختلف في سبيل اقتناء العلم إلى مكتبات العلماء الخاصّة لافتقار ما يحتاج إليه، إما بالاستعارة، أو الاستنساخ، أو القراءة لدى أصحابها، ولم يزل على هذه السجية، عندما زار البلاد العربية صادف مكتباتها العامرة بكلّ ما يصبو إليه عقله من أنفس المصادر التي تمكّن منها، فانكب وارْتَوَى ما شاء الله أن يرتوي منها قبل أن يقتني ما أقدره عليه جلّ شأنه من علوم، ومعارف، وفنون، فقوي مزاجه على الهمة العالية في الاطلاع والجمع، وعظم طابعه العقلي والذوق الفني[2].

---

(1) روايات شفهية عن أصدقائه، ومنهم الحاج فازازي أبنكندا بمنزله بي أغيغي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، والشيخ محمد راجي أَيْبَتِي ميْتا ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، والشيخ أبوبكر نغيري بمشز لاغوس، والتاريخ يعيد نفسه.

(2) الإلوري، نسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء بلاد يوربا، مكتبة وهبة، ص ٢١٨.

ثقافته :

جملة اعتبارات فنية قوية أتت ثمرة ناضجة تكبدها الإلوري معاناة ، فعبرت عن قدرة صاحبها على صون أصالتها ، فغدت تجربة رائدة تواكب مناكب الحياة ، والإبداع الطريف أسمى ما يستهدفه الإلوري فيغوص في أعماق المادة التي يهواها ويستشفّ من رؤاها متبعا أبعادها مستهلاّ المعنى المعجمي ، ويفجّره تفجيرا حتى يلتقي بالاصطلاح ، ويقيم كثرة المعاني الشروط التي تنهض الأسس والمقاييس ، وعلى نحو ما يصنع في التنظير يعمد إلى التطبيق ، وينظر إلى أنماط جديدة لم تطمثها عين مبصرة ، ولا طرفتها يد يراعٍ ، فيفيه بديع بيانه ، وإذا استدعت ناحية توجيها أو تعديلا ، فإنه يقابله بألطف قول وأرأف عبارة ، فلا يشير إلى العورة ، ولا يكشف السوءة ، بل يمارس أمانته بأدب جمّ وخلق كريم .

والظاهر أنّ ثقافته تثير الدهشة والإعجاب ، إذ خرقت عادة شائعة في الأوساط العلميّة ، وذلك أنّ المتعلّمين لا بدّ أن يستغرقُوا في قطع مراحل علومهم أمداً طويلاً يقدر بعقدين كاملين ، متباهين ببطون الكتب والأسفار من متون ، وشروح ، وتعليقات ، وحواش ، وتقييدات ، حتى يستظهروها ، ربّما لا يكلف أكثرهم أنفسهم مؤونة بحث ، أو تأليف إضافة جديدة ، أو إبداع جميل أو تدارك مقنع ، والغاية حفظها عن ظهر قلب .

ومن ثمّ يعدّ من أشرق من خالفُوا ما أدركُوا عليه أسلافهم ، وتواضعُوا له سنة علمية ، بل إن الإلوري يقود الأصناف الذين نضجهم من آيات الله التي لا تقبل التعليل سوى القول بأنّه نعمة من الله ، ومننه لا تُحصى ، وفعلا رأيناه كيف تلقى علومه قبل رحلته إلى البلاد العربية على مناهج عصره ، وعندما امتحن في الأزهر الشريف على النظام القديم في عهد المراغي والظواهري ، وما احتكّ في الظواهر الجديدة ، فتلاقى ما لديه في نيجيريا من التطورات التي

أحدثها الاحتلال وإن كانت محتجبة للمسلمين[1]، وحينئذ خرجت ثاقبته غير قاصرة على سواري المساجد، ودهاليز العلماء، فكانت محصلاته قليلة إذا قيست بما تجمع له فيما بعد من كنوز عظيمة اعتمادا على الله، ثم على نفسه، لاسيما تلك العلوم التي لم تنتشر في المنطقة عهدئذٍ، وفعلا إن هناك فئة نالوا أعظم حظ مما له، ولكنهم لم يرتقوا ارتقاءه.

ومن الملحوظ أنّه قد شقّ لنفسه طرق هذه النوادر، فانطلق إلى الأزهر الشريف، فكلّفته تلك المهمة مجموعة من دراسة جوانب أخرى، لا سيما ما يمسّ الامتحان بموجب نجاحه مُنح الشهادة الثانوية.

وعند الأداء دفعته العناية القوية إلى التأليف والتصنيف ممارسا طاقاته، وفي مناسبات عدّة يتّخذ من الموسوعيين قدوته الحسنة على اختلاف عصورهم أمثال شيخه آدم نماج، وابن خلدون، والغزالي[2]، إيمانا بأنّ من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لا يعلم، وأحسّ بعظمة ثقافته وتضخم علمه، فنبع من نفسه عرض كتابه إلى من يقوّمه من أعلام الإسلام[3].

مصادر ثقافته :

يحتلّ مصدرَه العام القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ليس اقتباسا منهما فقط، بل إيثارهما على ما سواهما في تأصيل العلوم والفنون إيثارَ الأديب المؤمن المقتنع بهما غايتَين عظيمتَين ينتهي إليهما مدار الحياة العقلية في سائر مناحي الكون، وفي ذلك يؤكّد :

« أصولها ثلاثة فعِها قرآننا حديثنا يحويها

ولا تفارق مصحف القرآن لازمه للحفظ وللتبيان

---

(1) الإلوري، مركز التعليم العربي الإسلامي أجيجي ـ نيجيريا في أربعين عاما، د. ت. وم. ص: ٢٧.

(2) الإلوري، لمحات البلورفي مشاهير علماء إلورن، ص: ٧٨.

(3) راجع ذلك في تقاريظ الإسلام وتقاليد الجاهلية، والإسلام في نيجيريا الطبعة الثانية.

أمـــا حـــديث ســـيّد الأنـــام ففي الـمـقـام الثانـي في النظـام
ثـــم كـــلام العـــرب العربـــاء أشـــعارهم أمثالـــهم للرائـــي»[1] -

واستنباط الأحكام على القياس الصحيح من منطق الاجتهاد موقف سديد ، ورؤية سليمة من العيوب،ولم يخلق الله العقل إلا لإدارة الذهن والفكر والرأي، ويزداد القياس وجاهة كلما اعتمد القرآن الكريم والحديث النبوي وآثار السلف الصالح في كلّ ما وصلت وما ستصل إليه من المعارف الإنسانية فإن المصدرَينِ هما النبع الفياض الذي لا ينضب ، وتتلوهما نماذج أخرى من الكنوز العلمية الواسعة التي تعمّق الفكرة ، وتثري الأسلوب ، وتكوّن المقدرة فذة نامية ، وعلى هذا تمخضت نواحي ثقافته .

وتأخذ الثقافة على الصورة العامة بمفاهيم منوعة في قاموسه المجيد مبينا قدرة الموضوع على توسيع نطاق فسيح ينتهي إلى تكوين مرن قوي للإنسان ، ويتتبع أبعاده ويعمّق جذوره ، ويبيّن وظيفته ، ويحنّك ويصرف نفسه على معطياته انطلاقا إلى واقعه ومثيراته ، ويميل مبدئيا إلى دقة الحصر : « لا يزال العلماء في كل أمة يختلفون في تحديد معنى الثقافة والحضارة ، ومنهم من يجعل الاثنتين متقاربتين ، فيستعمل الثقافة مرة بمعنى الحضارة ، والحضارة حينا بمعنى الثقافة ، ومنهم من يجعلهما متخالفتين ، وهذا أصحّ وأكمل . فالثقافة : الحذاقة والمكنة في العلم ، والحضارة : بمعنى المدنية ، وهي ضد البداوة»[2].

ويمضي به على سنته العريقة في توثيق العنوان لعرضه على المعنى المعجمي ؛ لأن ذلك أدعى إلى الأصالة والعقل الحرّ دون التقليد الأعمى ، والاقتباس المكشوف ، وعند الاهتمام بالمعجمين القاموس والاصطلاح تتبيّن الحقائق ، وتثبت العراقة بالموضوع .

---

(1) الإلوري ، أسرار البلاغة وأساس الفصاحة ، شرح وتعليق عبد الوهاب الغماوي ، شركة رضوان الله أكبر ، لاغوس ، ط٢ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م ، ص :١٠،١١.

(2) الإلوري ، مواقف متوسطة ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ص : ٣١ .

فالثقافة صعيد عال يبوأ العقل مرتبة رفيعة لتوصيل ما يحتاج إليه من نمو الذهن ، وغذاء قوي يمدّ العلم ويحركّه وينشّطه ، ويوظّفه توظيفا ، وهو قد تهيأ بنفسه فيجيز العقل لينفذ من طور إلى آخر ، ولا تتمّ تلك الانطلاقات إلا بالثقافة ، « فالوعي : ذوق فكري يتوقد به الذهن ويشحذ به العقل للقيام بأداء الواجبات واستحقاق الحقوق . وهو ملكة متمكنة في ذهن كل إنسان ، غير أنها لا تعمل إلا بالتحرك ، ولا يحرّك إلا الثقافة كمثل البارود لا يلتهب إلا مع اللهيب والشرر . فالوعي لب الثقافة ، وهي لب العلم ، والعمل غاية الثقافة ؛ لأن العلم معرفة حقائق الأشياء على ما هي في الواقع . والثقافة نضوج العلم ونقايته وقمته التي تقاصر عنها أعناق الأبترين ، والعمل هو الغاية التي من أجلها نتعلم ونتثقف »(1) .

وأعلى مراتب الثقافة لدى الإلوري إذاً « الإبداع » الذي يستوفي شروطا قوية تنتهي إلى اعتقاد صاحبه على مفهوم « ما ترك الأول للآخر » أن الخلفية قدرة استيعاب الرسالة السلفية ، وتعمّق تفهّمها ، وتذوق مداركها ، ودقة حصرها بدون إتلافها على مهبّة عوادي الزمان للتحريق والالتهاب والسرقة والاختلاس ، أو رميها في غير مبالاة من الأمكنة ، والصعائد ، والموطن ، وأن هدف المؤسسات التربوية إذاً إيمانها الراسخ أن القضايا السلفية يعظم تقديسها ورعايتها ؛ إذا نالت من الخلفية عناية بالغة غير مقصورة على الجمع والرصد ، والتنسيق ، والتهويل بعبارات مغرية ، ودعاوى محرضة ، وتنظيم الكتل ، وتحديد المواضيع ، وضرب الخيم على عروض المفاخرة والمنافرة في ذات الأفكار وحدها ، أو الأساليب فحسب ، وذلك لا يحقّق المغزى الذي أنشئ عليه دور العلم ، وقصور المعرفة ليست الثقافة في حد ذلك ، ولكنها تلقي في الروع أهدافها النبيلة تغدو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

---

(1) الإلوري ، الدين النصيحة ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أجيجي ـ نيجيريا ، ط٣ ، ١٩٧٨م ، ص : ٣٧.

وعندئذ تقع الدروس والمحاضرات، وحقول الندوات والمؤتمرات، والبحوث، والرسائل ، والمقررات ، والمقالات القصيرة ، أصولا مجيدة تستدعي شروحا فريدة ، تارة يحوجها تبين التفصيل ، وتارة تمسك التحليل ، وطورا آخر تميّز الحكم الصارم ، وإلا فإن الجامعات التي تعقد أهدافها الجليلة في تربية ذوق الطالب منذ الساعة الأولى ، فتجعل أبرز أعمال السنة مقائل مقتضبة تكوّن ملكة التحرير في كل مادة على مدى أربع سنين ، ثم يعقبها رسالة التخرج ، فإذا جُمِعت تلك المقالات لا تقلّ سفرا إن لم تكن مجمّعة ، وفوق ذلك فإن ما تصنعه مرحلتا الماجستير والدكتوراه من الهمم العالية في الإضافات الجميلة لرفع مستوى الأمة ، والإقليم ، والإنسانية ، لا سيما طور إعداد المدرسين ، إذ لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر حتى يحضّر جملة هائلة من إبداعاته التي تمخضت من جهود مضنية ، وتفتح الجامعات والمعاهد العليا تلك الصفحات المشرقة لإعداد الأجيال القادرين على تقلّد مهام وأمانات ومسئوليات جليلة ، لعل هذا وذاك يعين على تنمية المواهب ، وتلقيح التراث بالتحقيق ، وتحرير الرسائل ، وتحبير المقائل ، وتأليف نماذج حرّة ، وهي تعود عوائدها كتبا ، ورسائل ، ومؤلفات ، ومصنفات[1] ، لا سيما المقررات في جميع المراحل ، التي ظلت جثثا هامدة .

تلك العزائم الجُلّى قد سبق إليها سلفه ابن فودي : « تواليفنا شرح وتفصيل وتوضيح لتواليف من قبلنا ، وتواليف من بعدنا تفصيل وشرح لتواليفنا ، فعلى كل عالم أن يؤلّف لزمانه »[2] .

والثقافة اصطلاحا : التمكن والنضوج في العلوم والآداب والأخلاق ، فالعالم النحرير المتمكن من فنون العلم نظريا وعمليا يُسمّى مثقفا . والأديب الناقد المستنير الذي يملك زمام الأدب بسائر فروعه يُسمّى أديبا مثقفا .

---

(1) أغاكا ، البلاغة القرآنية لدى عبد الله بن فودي ، ص: ٢٧.

(2) عثمان بن فودي ، نجم الإخوان ، مخطوط بمكتبة الكاتب .

وتذهب فئة إلى أن الثقافة والحضارة مترادفتان ، غير أن الأولى خاصة بالأفراد ، والأخيرة عامة بالأمة والمجتمع . يقال : رجل متثقف ، وأمة متحضرة أو متدينة ، وحكومة صالحة .

أما الحضارة لغة : بفتح الأول وكسره ، فهي حالة الإقامة في الحضر . والحضارة اصطلاحا : إحضار جميع المرافق التي تستكمل بها المدينة ويحتاج إليها المتحضر من وسائل المعيشة والحياة من مساكن ومراكب وملابس وملاجئ ، وكل ما وصل إليه العقل البشري من المطالب الفردية والجماعية ...

على الصورة العامة تتكوّن أركان الثقافة من دعامتين عظيمتين ، وهما اللغة والدين ، وأما اللغة فهي أداة التفاهم بين أفراد الأمة وهي الوسيلة المباشرة لنقل الشعور والعواطف من ذهن إلى ذهن ، ومن شخص إلى شخص ، حتى إلى جيل وإلى أجيال . اللغة هي التي تترجم عن أفكار الأمة في آمالها وآلامها ، وهي وسيلة رباط الوحدة والإخاء والتضامن بين من يتكلمون بها ، وهي التي توحد أساليب تفكيرهم وشعورهم .

بينما الدين يقع أهمّ أركان الثقافة ، لأنه يملي على الناس التقاليد والآداب والأخلاق الصحيحة . إذن ، فالثقافة الإسلامية تعتبر اللغة العربية والديانة الإسلامية قواما ، وتسعى إلى تكوين الفرد المهذب بالآداب والأخلاق والفضائل والمحاسن والمعاملات الطيبة ، وإذا كان كل فرد كذلك تكوّن من الأفراد مجتمع صالح نظيف مهذب أمين طيب في سائر لآداب والأخلاق والمعاملات ، وإذا كان المجتمع صالحا ظهر منهم رئيس صالح يحكمهم»[1].

وتستوعب الثقافة قوة النضوج الفكري في الشئون كلها دينا وأدبا واجتماعا ، ففي جانب الدين تقوم بتطهير الدين من الخرافات المتعلقة به من آثار الوثنية ،

---

(1) الإلوري ، الثقافة الإسلامية ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ـ نيجيريا ، ١٩٦٩ ، ص: ٣-٤.

وإثبات حقيقة التدين بالبراهين النقلية المتواترة من أنبياء الله ورسله ، وإثبات جوهره بالبراهين العقلية المستنتجة من المقدمات المنطقية الصحيحة[1] .

أما الأدبية فهي ما انطبع بالفكر من عيون الشعر والنثر الخالدين بما يخلق في الإنسان ملكة يقتدر بها على الإنشاء البديع[2] .

وعلى هذا الأساس يعقد سلسلة من الهمم تحفز إلى تحرير العلوم وتصنيفها ، تستوجب مراعاتها على الشباب ؛ لأنهم عدّة الأمة ، وعمدتها للظروف المستقبلة ، وقد سلف قوله تمجيدا لرواد معاهد السواري وكليات الجوامع ، إذ هم لا يحجمون عن تحرّر ما تمكنوا منه حتى الرسائل الإخوانية يقرضونها شعراء ، ويبدون فيها مهارتهم ، ولما أنعم الله على البلاد بإنشاء المدارس النظامية وتولت الحكومة رعايتها ، فانعقد عليها الأمل ، وحق تقاسم العناية بين المؤسسة ، والمدرسة ، والبيت ، والمجتمع ، فصدق ذلك في قول الإلوري :

« على كل فرد يطلب العلم أن يكون له هدف غير طلب الشهادة في العلم ، أو طلب العمل اليومي الذي يعيش به في المجتمع ، وهذا هدف الرعاع ، بل عليه أن يتخذ من العظماء من يكون له مثلا أعلى يحتذيه .

وعلى كل مدرسة أن تكون لها غاية قبل جمع التلاميذ في الفصل لا مجرد الهوى والتقليد الأعمى بأن فلانا وفلانا أسّس مدرسة وأنا أفعل ذلك ، بل عليه أن يدرك الباعث إلى بناء مدرسة ، والمطلوب من التلاميذ بعد تخرّجهم منها »[3] .

---

(1) الإلوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، مكتبة الحياة ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥م ، ص١٠٠.

(2) الإلوري ، المصدر السابق ، ص: ١٠١.

(3) الإلوري ، الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص : ١٦٣.

وكثيرا ما يباين سلوك المدرسين ما يلقونه على طلابهم ، وخالفوا ما أُلقِي على عاتقهم من الأمانات ؛ إذ أغلبهم تمّ تعيينهم على ما تكبدوه من جهود مضنية ، ونالوا بموجبها الشهادة الراقية ، أو نالوا ألقابا عالية ، وقبل ترقّيهم أعدّوا بحرا خضما من الكتب والمقالات والرسائل ،ولم يكادوا يحوزونها حتى نسوا ما كانوا عليه ، وأمسى بعضهم يعتزّ بصنعه مذكرة يأكل عليها الدهر .

ولما كان الأدب أعظم بلاء وحنكة في جميع أصناف المثقفين ، لأنهم يحملون على رقابهم هموما لتفقه كل الأذواق ، وأن عبارتهم لكل فكرة ضربة لازب ، عظّم الإلوري مهمتهم .

وأقوى دلالة على التحرير « الأدب» ، لأنه ذو سمة متميزة عند تكوين الفن والملكة ، وقائم على الفكرة والأسلوب وما يصونهما من المقاييس في صحة العقيدة ، لاحظا في واقع الحياة والتاريخ ، وأصالة الإبداع التي تبعده من السرقة والاختلاس والنهب ، وليس التطاول والمبالغة الرخيصة لشرف المعنى ، ولا ثروة مادته لإبقاء عظمة صاحبه على التظريف ، وذلك يوحي بنكران نواميس الكون .

وعلى ذلك تأتي قيم الوضوح الذي تستريح إليه النفس دون التردد في المعاني ، لأن اللفظ الذي حملها أدّاها إلى جدّ البيان وفصل الأسلوب عن وجوه الإبهام وإزالته على بداهته وبراعته .

وكما تثبت تلك الجدارة للأدب الإنشائي يستقرّ ذلك للأدب الوصفي نقدا وبلاغة ؛ لأن توضيح القيم الفنية التي لوّنها الأدب على مظاهر الحياة وصورها ، واستدعى النقد لتمييز الرداءة من الجودة ، والتعقيد من السلامة ، والعيب من البراعة ، تلك هي الأنشودة الخالدة التي ينادي ويتنادى عليها العباقرة على مدى الحياة البيانية .

وعلى ضوء ذلك يوصي الإلوري : « البحث أدب ونقد في الشعر والنثر والتاريخ . والتأليف تدوين وتصنيف للعلوم والحوادث أو تسجيل للتاريخ . . .

وشتان بين من يكتب المعلومات أو يسجّل الحوادث حرصا أن لا تضيع ، أو تُطوى في سجلّ النسيان وتُرمى في زوايا الإهمال ، وبين من ينتقد ما كتبه غيره ليميّز منه الغثّ والثمين ، والفجّ والناضج ، والقضة والفضة ، وللنقد شروط وآداب لا تخضع للعواطف والميول والرغبات ، تلك البلية القادحة أن ضاعت قيمة الشهادات والألقاب ،لأنها لم تنفع ،إذ لم تكد تنال تكريم أصحابها من قبل المسئولين ، فأغلبهم قد ولّوا وجوههم عن العلم وأدائه إلى زخارف الحياة وبهياتها ، ولم تنجز الأهداف التي من أجلها أُنشِئت الشهادات والألقاب

كما يجب أن نعرف الفرق بين من يكتب بحثا للحصول على درجة جامعية ثم ينقطع عنه ، وهذا كثير اليوم في نيجيريا وغيرها ، وبين من يتخذ الكتابة صناعته لا يستريح منها إلا بقدر الاستجمام ثم يعود إليها ، وهذا قليل جدا ونريد أن يكثر .

لقد أحسنت جامعاتنا للعلم والأدب والوطن صنعا ؛ إذ فرضت على شبابنا أن يكتبوا ، وحدّدت لهم مواضع ومباحث محلية يكتبون فيها . . . مع العلم أن علماءنا كانوا يهربون من الكتابة لما شاع وانتشر بينهم من قولهم : « من كتب نثرا أو قال شعرا فقد استهدف ، ولا يزال المرء في فسحة من أمره ما لم يكتب نثرا ولم يقل شعرا»[1] .

وينفع النصح والمبادرات كلما تنبع من نفس مؤمنة بما تقول ، وعاملة بما ينادى به : « جدّوا واجتهدوا ولا تبالوا : ونصيحتي إلى الشباب أن يجدّوا ويجتهدوا في الكتابة لا يبالوا بالخطإ ، ولا يكترثوا بالمادح والقادح كما فعلت أنا حتى ظهرت بالكتابة . ولقد بدأت في ممارسة الكتابة من غير وجود القائد الدليل ، بل بدأت بالتعوّد على إنشاء الرسائل وقرض الأشعار اقتداء ببعض العلماء القليلين ، الذين كانوا يقرضون الشعر ويتراسلون به ، فقلّدتهم وكان قدوتي في ذلك الحاج محمد البرناوي وزير بدا ، وذلك في شرح متون العلم ،

---

(1) الإلوري ، الإسلام اليوم وغدا ، ص: ١٦٤- ١٦٧.

ثم شيخي الكنوي آدم نماج الذي كان كاتبا شاعرا ، ولكن لم يطل بي معه المكث ، وإنما بارك الله لي في ذلك القليل بدعائه لي وتشجيعه إياي في تقاريظه لما قدمت له من شروح المتون»[1] .

وخالص القول : «أن فصول ومواضيع الثقافة الإسلامية مبعثرة في كتب التاريخ والآداب والتشريع والفقه والحديث ، والحاجة تدعو إلى دراستها وإتقانها إلى درجة كبيرة لمعرفة مزايا الإسلام في تعاليمه الفردية والجماعية ، واهتمامه بالدنيا والآخرة على السواء»[2] .

تلك جملة من مقاصده النبلى في تكوين هيئة التأليف[3] ، فيباشر مشروعها على اختلاف التجارب بين تلامذته وأتباعه ومعجبيه ، وفي ١٩٤٨م نظّم «الثقافة» ندوة وطنية تنادى إليها أجلة المثقفين على تحريك أذهانهم وإيجاد القوى العربية في المجتمع غير قاعات الدراسة وسواريها ودهاليزها فقط ، كما حاولت رابطة الأئمة والعلماء لتشكيل الجبهة العلمية التي ترعى شئون العلماء والفقهاء والمفكرين والأدباء على اللسان العربي .

ومن سننه المكررة لتنفيذ هذا المشروع أن كان يوصي توصية بالغة لفيفا من أساتذة المركز ومن تفرع منه من أصحاب المراكز ممن أوتوا بسطة فكر وذوق بإعداد كتب مدرسية ، وتارة أخرى يشرك الآخرين معه في هذا الميدان ، لأن الكتب المستوردة لا تراعي مصالح البيئة ، والوطن ، والتراث ، والقوم .

وأقوى منهجه في تربية ملكة الكبار ما يقرّره لترقية المعلمين إلى سلّم المدرسين ، ويتمثل ذلك في «دبلوم» بموجب إعداد بحث موثوق يسند إشرافه

---

(1) الإلوري ، الإسلام اليوم وغدا ، ص: ١٦٧.

(2) الإلوري ، الثقافة الإسلامية ، ص: ٢.

(3) أحد الأجنحة التي يعتزم الإلوري إنشاءه لإعداد الكتب المدرسية وتحقيق المخطوطات وتربية الناشئ على الإبداع ، أشار إليه يوم أقيم حفل القدوم من المغرب للأستاذ صديق فاروق ١٩٨٠م.

إلى أولي العقل والبيان والمرونة، لأن حياة العلم تحتاج فوق الجمع، والحشد، والحفظ إلى إعمال ما تلقاه المرء خبرة واسعة تصحب القائم بها، وتهبه كفاءة متميزة ذات أصالة بلا تقليد، ويغدو بها قدوة للمهتدين طلابا، أو أتباعا، أو معجبين.

وما أمثلة ذلك بقليل في ذاكرة الإلوري وحافظته مما يشغل باله في تكوين هيئة التأليف لأنها حياة العلم لا في السابق وحده ولا اللاحق كل ما بقي العلم روح العقل، فإن الثقافة لبّ، وعلى أثره ينطلق الوعي والاعتقاد.

ويحيي إحياء بالغا المناسبات الإسلامية[1]، فيقيم من مواسمها مسابقات أدبية صاخبة بين الطلاب شعراء وخطباء وفنيين، وتخرج المدن على بكرة أبيها، لأنها موئل البيان العربي فيحسّ الجميع بالغبطة والنشوة، سواء متسابقين كانوا أو مشاهدين أو فائزين أو منهزمين، ولكن كفاهم اعتزازا واعتدادا أن كان للعربية يومها يفتخرون به، ويباهون بتهانيهم في سائر أفراح الأعياد التي تغمر الأفراد والجماعات والطبقات، فيتبرجون في الشوارع والمعاطف، فيرون في شاشة التلفزيون، ويشنفون الآذان بالأغاني المطربة في الإذاعة مثبتين مواقفهم، ومخلّدين أذكارهم، وأعظم على قولهم بالعربية سؤددا ومجدا[2].

ثقافته البيانية :

وقد استرعى البيان العربي بما له من شعب وحقول انتباه الإلوري لواقع البيئة المكانية والزمانية، وسعى إلى جملة من أنشطة كوّنت ثقافته اللسانية في

---

(1) وأخلدها ذكرا وأروعها مجدا ما أقيمت في عيد العقد الثاني من تأسيس المركز ١٩٧٢م، إذ حضر الشيخ الشغري حلقة المناظرة بين العلم والمال وهو جنيد وزير التربية والتعليم والمال.

(2) وأبقت هذه الأثارة في نفوس المركزيين ملكة الشعر يتوارثونها كابرا عن كابر إلى يومنا هذا من جامعيين ومسجديين.

ظاهرة التنظير والتطبيق الواسع لما قرّره القرآن العظيم في عدّة سور بدءا بالوحي الكريم الذي أثبت ضرورة القراءة ورادفها بالقلم ، ثم وازن بينهما بسورتي النمل والحجر حتى فواتح أخرى تأكيدا بأن الأسلوب يحظى بما يحظى به الفكرة من عناية بالغة ، وبناء على ذلك كانت هذه الهمة العالية ذات أصالة وعراقة تمتدّ جذورها إلى أثارة القدامى ، إذ يقدمون على الفكر الإسلامي عناية بارعة باكتساب العلوم العربية ، وتخير صفائها ، ونقائها متمرّسين على دقّتها ، وإيحائها ، لأنها مفتاح سديد عند اقتحام الكنوز المعقّدة ، وحلّ رموزها الصعبة[1] ، بل كانوا يجعلون الفصاحة أنشودتهم ويبارون في امتلاكها مشدودين إلى ما أتيح لهم الاطلاع عليه من قواميس ومعاجم ، أو ينظّمونها مقرّرات ، أو يضمّنونها قصائدهم ، يحاولون بها تقوية ملكاتهم ، وأساليبهم ، ولا يكادون يفرّقون بين الكلمات الحوشية ، والندرة ، والغريبة والشاردة والشاذة ، ما دامت مألوفة لدى العرب الأقحاح الذين لم تشبّ ألسنتهم شوائب ، وينفرون فرادى وزرافات إلى مراكز عربية أصيلة تملكهم الرصانة في أساليبهم ، وتبعدهم عن اللحن والرطانة ، حتى يكتسبوا المقدرة السليمة على ضوء السليقة العريقة .

وقد شارك هذا الاتجاه ، فوضع كتابه « أسرار البلاغة »، وهو منظومة لمختارات ألفاظ من معجم الثعالبي[2] ، ويشابه مشابهة قوية ما عمله الإلوري بما يجري في دنيا المعجم المعاصر ، إذ يوزعونها على مدار الذوق فيقولون في ذلك المعجم الصوتي والاشتقاقي والنحوي والدلالي ، كل ذلك يحويه

---

(1) قياسا من قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون» بأن مقام الرسول في تربية الصحابة ، ومن على شاكلتهم من الفقهاء تعليمهم البيان ، وهم بدورهم يستنبطون الأحكام التي تواجههم في ظروفهم ووقائعهم من ضروب الحياة المختلفة.

(2) جرت الطبعة الأولى على تحقيق الغماوي بتوجيه من العلامة الإلوري ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي .

صنع الإلوري ، وكذلك أثرت مكتبته بقصيدة أخرى[1] ، وهي إحدى قيد الأوابد التي يساجل بها علماء المنطقة خصومهم ، ويؤكّدون بها مكانتهم بين زملائهم ، وثبت أنّه كان يتخيّر ألفاظه من عيون النصوص الأدبية على اختلاف عصورها الذهبيّة توسيعا لقاموسه ، وإثراء لتراكيبه وأخيلته ، وتوثيقا لملكاته ومقدراته ، وبالغ في الاهتمام حتى خيل إلى القارئ الذي لا يحسن قيمة التنوّع ودقّته في المعجم اللفظي أنّه يختلّ به الإسفاف ، والإسراف على نحو ما جاء منه : « إنّ قبائل غرب أفريقيا وإن كانت متعدّدة في الفروع ؛ فهي متّحدة في الأصول ، متقاربة في التقاليد ، والعادات ، متماثلة في اللهجات ، متشابهة في العقائد والديانات ، متعاونة ومتحالفة في الدفاع والغارات والهجمات »[2].

وكلمات « التقارب » و« التماثل » و« التشابه » وإن كانت تؤدي في الإطار العام معنى واحدا ، إلا أن الفروق الدقيقة تتبين حسب الخصائص والمزايا التي تصحب كل واحدة منها ، وتجعل للقاموس المعنوي قدرة ومزية ، لكن الذي لا يتذوّق خصائص تلك المفردات لا يتبصّر دقائقها ، ولا يلقي بالا بهذا الصنيع ، بل يراه عابثا بالألفاظ ناسيا ما له من عناية بقيمة التقريب بين حقيقة العلم ، وفنيّة الأدب .

ويذكر من ثقافته اللسانية « يوربا » لغته الأصلية ، فقد حذقها حذقا بارعا إلى حدّ ما يجاري فيها أدباءها وشعراءها وكتابها ، وبلغ فيها شأوا بعيداً ما أمكنه من أن يلقي بها خطبا بديعة ، وأن يقرض فيها شعرا مستوفي الشروط الفنية ، ليس لأنه كان ينتمي إلى لسان « أويو » الذي يمثل الفصاحة النموذجية المحافظة على الرونق والمتانة المتجافية عن الخشونة والغريبة فحسب ، وليس لأنه غلبت عليه لهجة « إلورن » التي صقلتها أنماط عالية من الأساليب القرآنية والنبوية على أيدي المفسّرين ، والبيانيّين ، والشرّاح ، والمعلّقين الذين كانوا

---

(1) راجع مكتبة الأستاذ عبد اللطيف ثنبو ، أحد المدرسين بالمركز .

(2) الإلوري ، الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي ، ص: ١٤.

جسراً أمينا بين العربية ولسان يوربا فقط ، بل إلى جانب كونه ذا حسّ وذوق قويّين[1].

ويجدر بنا أن نشير إلى تأثره بهوسا ، فقد كان ينطقها نطقا يعينه على التفاهم والتعاون ، وكثيرا ما يستشهد بمقطّعات من أبياتها في مواعظه ، وربما يقوى فيها عامل الذوق عند ما قام بترجمة أمثال وحكم هوسوية ويوربوية إلى العربية لتأكيد رونق أدب نيجيريا الإسلامي ، وصلته بالعربية في المفردات ، والتراكيب ، والصور ، والأخيلة ، والموسيقى[2] ، ومن هذه الروافد اللسانية ؛ حذقه الإنكليزية ثقافة تمكّنه من فهم ما تحويه النصوص من أفكار ، وأحاسيس عاونته على دراسة ما كتب عن تاريخ البلاد ، وتراثها ، وتشهد له حلقات الوعظ والإرشاد ، والحوار كيف كان يستعين بها لمناصرة قضايا الإسلام والدفاع عن حقائقه وشرح مزاياه خصوصا عند تحديات الزمان .[3]

وفي صناعة التركيب يشدّ فيها عناصرها شدّا قويا حتى تتلاقى جميعا على العروة الوثقى ، وتيّقن حفظه لألفية ابن مالك بتحقق وممارسة ، مقتنيا ما تمكن منه من شروحها وتعليقاتها ، ويستحضرها في معارض كلامه ، وكتبه ، وخطبه ، ودروسه ، ومحاضراته ، ومواعظه[4] ، وحلقاته ، تأصيلا وتوثيقاً ، وكثيرا ما يحتج في ذلك بأبي عبد الله الوزير الأطركمي البرنوي أحد

---

(1) وله قطع منثورة في صورة منظومة يستهلّ بها مواعظه في مناسبات عديدة يشرح بها صدورا محجورة ، وقلوبًا متحجرة ، ونفوسًا صادية .

(2) راجع موجز تاريخ نيجيريا ، ص: ٣٣ .

(3) راجع في ذلك ما كتبه في صحائف وجرائد ونشرات خصوصا في concord, New Nigeria, Daily times) خلال ١٩٧٠- ١٩٩٢م .

(4) ومن ذلك ما استطرده في حلقات التفسير عند رمضان الكريم ١٩٦٧م ، وقد وجه القراءة على أسس صرفية لإثراء الغاية البلاغية في قوله تعالى : « إنه عملٌ غير صالح» بالاسمية ، أو إنه عمِلَ غير صالح» بالفعلية ، فالأولى تشير إلى أن الابن وأباه مشتركان في الإثم ، بينما تفيد الأخيرة أن الابن مقترف الذنب وحده .

الشيوخ الذين تبقوا على وفادة الأزهر الشريف علما ولقبا ، وهو أعلم بالبلاغة والنحو بعد العلامة عبد الله بن فودي ـ رحمة الله عليه ـ [1] ، وكره كراهة شديدة أن يلحن الخطيب على منبره ، والشاعر في قصيدته ، والكاتب عند تحريره ، لأنّ ضعف الأسلوب ضياع المعنى ، وفوضى الفكر ، وعناء المقصد ، وبهذا البعد من العناية بالنحو وضع كتيّباته وشروحها ، ومن بينها : « شرح أيا طالب الإعراب »[2] ، و« تقريب النحو »[3] ، ولم تقلّ همته بالصرف والاشتقاق[4] ، لأنّ التراكيب لا يتمّ بناؤها على أسس قويّة إلاّ إذا كانت مفرداتها متأصّلة في رسوم اختيار الأبنية وإيثار بعضها على بعض ، ونتيجة ذلك جاء التصريف من بواكير إنتاجه تقويماً للسانه ، وإعداداً لتلامذته ، ولم يزل على همته العالية في وضع كتب مدرسية أخرى في هذه الميادين حتّى تُوُفّي إلى رحمة الله عام ١٩٩٢م .

وفي قاموسه البيان والنقد وما أشار إلى ملامحه ورموزه مما كوّن له ذوقه به:

لكنّها تحتاج للنقد الذي فارجع بنقدها لإرشاد الفقيه[5]

وتكرّر لديه الأسلوب ومميزاته ووجوهه ، وأقوى قول أن يصادف رأيه ما كان يعتقده المعاصرون في الأدب :

فاختر هداك الله أسلوبك من كل أساليب الورى ليستبن

---

(1) راجع مركز التعليم العربي الإسلامي في أربعين عاما ، (ط/١) ، ص : ١٥.

(2) كان شرحا على منظومة الشيخ عثمان بن فودي ، وهي من بين ما يتلقاه التلامذة في المراحل الابتدائية بنيجيريا ، لا سيما جنوبها ..

(3) ألّفه لطلاب المركز بالمرحلة الإعدادية خلال الستينيات ، ولم تزل تقع طبعات بمطبعة مركز التعليم العربي الإسلامي ، أغيغي ـ نيجيريا .

(4) ومن ذلك شرحه على الميداني ، وهو من أهم ما يدرس في مجاله ، وراعى فيه مناسبة أذواق المتعلّمين ، وقد أخرجه طبعات كثيرة ، أولها ما قرظه شيخه العلامة آدم نماج الفندكي رحمة الله عليهما ، وتصريف المبتدي ، مطبعة الثقافة الإسلامية بأغيغي.

(5) الإلوري ، أسرار البلاغة وأساس الفصاحة ، ص: ١٣.

أسلوب نثر ليس كالشعر ولا أسلوب خطبة الخطيب في الملا
فاخطب بتكرار المعاني سرمدا واكتب بأسلوب القرآن بدا[1]

ويولي الإلوري الاهتمام البالغ بنقد المادة الفكرية لما فيها من أوهام وأساطير تصنعها العقول عندما تغيب الحقائق والمصادر ، خصوصا أنه كثيرا ما تصدر من أفواه المتوسطين الذين يعتمدون على ما توارثوه منذ آماد بعيدة ، فالمدوّن يحتاج إلى عدّة سلاح من المقاييس تزول بها الادّعاءات والافتراءات : « إن القول بأن برنو قوم من برابرة الشام ولما أكثروا الفساد فيها استغاث أهلها بأفريقش فغزاهم إلى آخر ما قالوا: يحتاج إلى التمحيص والغربلة، إذ الموجود في التاريخ الصحيح أن الله بعث موسى على رأس بني إسرائيل إلى جبابرة الكنعانيين والعمالقة بالشام ونكل منهم بنو إسرائيل . . .

واختلف المؤرّخون في معنى البربر وذهب بعضهم إلى أنها كلمة أطلقها الرومان على الأمم المجاورة أو المغلوبة كما ذهب البعض إلى أنها كلمة أطلقها عليهم أفريقش عندما تكلموا بكلمة لم يفهمها فقال ما أكثرها بربرتهم .

والخلاصة أن قبائل برنو من البرابرة الذين فرّوا من وجه يوشع ، ثم الذين هاجروا مع أفريقش إلى شمال أفريقيا وانتشروا منها إلى أواسطها وغربها... »[2]

وكذلك « القول بأن قبائل هوسا مماليك سلطان برنو قول جزاف ، وإنما الأصحّ أن بايجيده والد باو هو الذي تصاهر مع سلطان برنو وكان يعاونه في الحروب بموجب المصاهرة .

وقد قرّر العلماء أن قبائل هوسا الحاضرة ليسوا من أصل واحد ، بل من عناصر متعدّدة ، وإنما تكلّموا بهذه اللغة التي انتسبوا إليها لكونها أخفّ على اللسان ، ولكونها لغة الحكام والأمراء .

وتعدّد قبائل هوسا لا ينافي توحّد سلوكها في أسرة واحدة كما مرّ .

---

(1) الإلوري ، أسرار البلاغة وأساس الفصاحة ، ص : ١٤، ١٥.

(2) الإلوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، ص : ١٣٠.

وفي القول بأن يعرب طارد يوربا من العراق غفلة منشؤها أخذ القول على عواهنه .

فالثابت عند العرب أن يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد باليمن ، وغلب على العمالقة بالحجاز ، وولي إخوته من بني قحطان عليهم ، ولم يذكر له فتوحات إلى أرض العراق حتى يطارد منها يوربا .

فكيف يسوغ ليعرب أن يطارد يعرب (يوربا)؟ أليس التناقض في ذلك واضحا؟ والصحيح أن العرب الذين هاجروا مع أفريقش من اليمن ، ثمّ انضمّ إليهم البرابرة من الشام هم الذين تبقّوا في غرب إفريقيا وعاشوا جنبا إلى جنب مع إخوانهم الذين هاجروا سويّا .

ويكاد يتّفق المؤرّخون في هذه البلاد أن يوربا إخوان البرابرة بسائر أجناسها من برنو وبرغو »[1] .

« ولم يقل المؤلّف شيئا عن موقف أفنجا الرئيس العام للقرية ، الذي كان يريد عرش بلاد يوربا . هل وافق على تولية عبد السلام أو خالفه غير أن المؤلّف ذكر أمرين متناقضين بعد التولية ، أحدهما : أن أفنجا سأل عبد السلام أن يخرج له جيشا إلى شَأَوْ ، وأن يدعو له بالنصر في هذا الجيش .

ثانيا : ذكر المؤلّف أن الأمير عبد السلام صار بعد تدمير أفنجا عظيما في ملكه ودولته وكثرة جماعته يقيم الدين كما يقيمه أبوه حتى لم يبق في المملكة أو في الدولة من يخالفه ، ويردّ حكمه غير شولابيرو الذي قدمنا أنه تزعّم جناح التأييد لتولية عبد السلام بعد وفاة أبيه صار يتكبّر ويكرم كلام الأمير ، وصار يحدث العوائد التي خالفت الشرع . . . ولكن المؤلّف لم يذكر واحدة ولا اثنتين كشاهد من تلك العوائد التي خالفت الشرع ، هل ارتدّ شولابيرو عن الإسلام وعبد الأصنام ، وهل ترك الصلاة والصيام ومنع الزكاة أم منع المساجد

---

(1) الإلوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، ص : ١٣١.

أن يذكر فيها اسم الله حتى استحقّ أن يقاتل لإعلاء كلمة الله وهو من أنصار العالم وعبد السلام في أول الأمر؟» [1].

ونذكر من ثراء أدبه الوصفي وجودة بيانه ذلك الذوق المتفقّه لأنماط الكلام العربي، ودقّة معرفة فروقها ووجوهها التي اهتدى بها إلى تبيّن وجوه الكلام المتفاوتة، فأقدرته على تمييز مواطن الرداءة من الجودة، وقويت في نفسه الملكة على تذوق الخصائص لا في مجال الأدب فقط، بل تشمل جميع العلوم التي تناولها بالدراسة والبحث، والتأليف، والإبداع، والبيان، ومن ثم آمن بأن تكوّن القوى البلاغية ضبعا سليما ينبع من جميع أصناف النصّ وفنونه وأنواعه، غير مقتصرة على لغة الأدب وحدها، ما دام البيان مهارة الأداء في ضروب التعبير التي تخيرها الأديب من منطلق حسّه اللغوي، وعن طريق السماع، والمحاكاة، والاحتكاك، والقياس، والاستنباط، ومن ذلك تعليقه الآتي على قصيدة صرف العنان: «والمنظومة سهلة التركيب، سلسة التأليف، متينة الأسلوب، واضحة المقصود، نافعة العباد في جميع البلاد، منظومة بقيت على مرّ الزمان مرآة شفافة انعكست عليها نفسية الناظم الشعرية، وظهرت فيها بلاغته الأدبية، وحماسته الدينية، وثقافته العلميّة، وتجلّت عليها بيئته العصرية، وحالة قومه الاجتماعية» [2].

على أنّ الفنون البلاغية بشُعَبها المتعدّدة لم توضع في أصل أمرها إلاّ لتدريب الذوق، وتنمية المقدرة التي تملك المبدع التعبير في أي غرض كان، وهي بريئة من قانون إجرائها إجراء الطفل الأحجار على نحو ما آل عليها من ركود، وهبوط، نتيجة آثار المنطق العقيم في العهود المتأخّرة، وبهذه القناعة

---

(1) ابن إكوكورو، أحمد، أخبار القرون من أمراء بلد إلورن، تحقيق الشيخ آدم عبد الله الإلوري، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص: ٣٠، ٣١.

(2) الكشناوي، محمد مودي، صرف العنان عن طريق النيران إلى طريق الجنان، تحقيق الإلوري، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي، ١٩٨٦م، ص: ٦-٨.

كانت الفنيّة لديه إبداعا وممارسة طويلة لاستكشاف النقاب عن الأغراض والمقاصد لسنن الحياة وظروفها بوجوه نيّرة من التراكيب والأساليب القديرة على الأداء لكلّ معنى يشتدّ فيه التلاحم بين الشكل والمضمون ، متّسمين بروح وحياة ، ومتى استقرّ هذا الفهم العميق والفقه الدقيق وصل الأداء الفني إلى قمته ، وهكذا ألهمته العناية بالمقدرة البيانيّة ما تقتضيه الحياة الأدبية من صناعة ثقافة ثرية في كلّ صنف من أصناف العلوم والمعارف ، ومحاولة إزالة حواجز وحدود مصطنعة بين الأساليب ، فالمهارة إذا قدرة الأديب على صياغة ما يراه مناسبا لموضوعه ، ويشهد على ذلك كلّه ما له من انطلاقات واسعة في مواد علمية غزيرة ما خلع عليه من حلل فاخرة ، سلكت سننا ورسوما أدبية في حسن إبداع صور وأخيلة ، ولذا أثنى على أسلوبه أحد الأدباء المعاصرين له حيث يقول : « إنّه كان أفقهنا بسنن العرب في كلامهم ، وأعلمنا بأساليبهم ، إذ هم كانوا يفقهون ما يقول دون استعانة بضرب من التأوّل أو الوساطة على خلاف ما كان عليه غيره إذ هم يحتاجون في أساليبهم إلى تأويل ووساطة ، ومن لا يحتاج إلى تأويل كلامه في الفقه ، والفهم حجة على من يحتاج »[1] .

وعلى مدى هذه الثقة الكبيرة بكلام العرب رأى أنّ الصياغة الجيّدة من الأنماط الأدبية العالية المتوخية سنن العرب في بناء كلامها ينبغي أن تدخل في جميع أجناسها لحقّ التوليد والابتكار ، فكثرت صور مبتكرة في إبداعه لما آمن به توسيعا على العربية ومرونة في ذوقها[2] .

ولذا ، يحكم الإلوري عباراته إحكاما بارعا ، فيجعل الأجزاء متداعية الإشعار العميق فيترابط بعضها ببعض ، ولا يتسرّب إليه اللحن ، ولا تنتهي إليه

---

(1) الشيخ ناصر الكبري ، كلمة ألقاها على طلاب اللغة العربية ، بكلية الدراسات العربية شاهوس ، كنو ، ١٩٨٥م .

(2) ليس ذلك محصورا فيما كتبه في الفنون الأدبية فقط ، بل يشمل فروع أعماله العلمية ، كالتاريخ ، والتربية ، والدعوة .

الركاكة ، فهو أحد سدنة الإعراب والإبانة في شدّ العروة الوثقى بين اللفظ والمعنى ، وبينهما وبين سائر العناصر من صغرى وكبرى ، اعتقادا راسخا بأن ما يستوجبه الفكر من تغذية وتخيير وتنسيق كان حقا معلوما في الأسلوب ، يقول في أحد ما ضربه من قيثاره : « فلما منّ الله علينا بنعمة الإسلام والإيمان ، ونوّر بصائرنا بنور السنة والقرآن ، واستطعنا أن نميّز بين لإسلام المستقيم والمنحرف ، وأن نميّز بين الدعوة الصادقة والدعاية الخارقة ، علمنا أن بين الإسلام الذي رسمه القرآن والحديث وبين الذي سار عليه أكثر المسلمين بونا بعيدا وفرقا كبيرا . والتفتنا اليمنة واليسرة فأدركنا أنفسنا في بيئة مقلوبة يُكرَم فيها الكاذب ويهان الصادق ، ويُنصَر الباطل ويُخذَل الحقّ ، ويعَدّ عزة النفس كبرا والتواضع ذلة ، والتصريح بالحق وقاحة ، وإخفاء الحق وإظهار الباطل حكمة ومروءة »[1] .

أسلوب هادئ رزين يجلّ مقامه في التحدث بنعمة الله على عرف النساك وذوق الزهاد ، فإنهم يعتدّون معتزين بمولاهم ـ جلّ شأنه ـ أن اختارهم لأمانته وهداه .

ويفطن فطانة بديعة إلى جملة من الألفاظ الرشيقة التي تزيّن الكلام زنة أنيقة تتمّ بها الفائدة الجُلّى والمنفعة العظمى ، ومن ذلك « لما » مكوّن من أحرف مهموسة وأوسطها مكرّر لزيادة اللين ، وانتهى بألف مدّ لتشكيل نغمة عالية ليزداد المعنى قوة ونبضة ليناسب الفخر والحماسة المحمودين ، وهو كثرة تطابق وسع النعم والفضائل ، فاختصّت بالماضي واقتضت جملتين وُجِدت تاليتهما عند وجود سابقتها ، وهو أكرم حرف يلزم الوجود وجودا ، أو وجوبا لوجوب ، ويفسّر ذلك عن الثروة والجدّة والنعمة التي يعبّر عنها تقديرها وتعظيمها الكاتب ، وهي أداة قديرة على حمل المعنى إذا وقعت جملتين شرطيتين من أطول الجمل التي تناسب مقام الإطناب الممدوح ، والإسهاب

---

(1) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ٥، ٦ .

الرائع ، وليس هنا أجلّ نعم وآلاء من الإسلام والإيمان والسير في مواكبهما ، خلاف نظيره «لو» الذي يفيد الامتناع لامتناع ، لأنه مكوّن من مهموسين تعقّبه السكون ، ولا يعبّر الناقص إلا الناقص .

وبنى الفعل على المعلوم في الفقرة الأولى ؛ لأن الدلائل والثوابت تقرّرت أنها صنع الله وبديعه ، على أن الكاتب يحتاج إلى قوى منطقية مثيرة وموحية يثبت بها دعواه ، ويقيم عليها براهينه .

وعاونه التعبير بالجملتين الفعليتين وآثرهما على المضي ؛ لأن رزقه قد سبق خلقه بلا مزيل يزيله ، ولا منهٍ ينهيه .

وعندما يستعمل ضمير التكلّم الجمعي وهو أوفى غرض لبيان الافتخار والزهو والانتصار على الملحدين لآيات الله والصادّين لنوره ، ولكنّه آثر الفعل المعلوم لأن الدلائل القوية بارزة، والآثار ناصعة كضياء الشمس في كبد السماء، وأسنده إلى لفظ الجلالة ؛ لأنه أدلّ وأقوى من نظائره عند بلوغ جلاله وجماله وبديعه في آلائه المعنوية ، وهي أوجه الحسية وأروع .

بينما بنى الفعل في الفقرة الثانية على المجهول ، لأنه أمر مهوّل مستغرب شدة الاستغراب ، وبلغ شأنه إلا أن يسند إلى من لا تعرف هويته وحقيقته ، ثم حذف الفعل في القطعة الأخيرة لأنها بمنزلة براعة الاختتام التي تسمو بلاغتها بالاختصار ، وتقع خلاصة مركّزة غدت مناط بؤرة الشعور الدائم ، والإحساس القويّ الذي لا يناله سهو ولا نسيان ، ولا غفلة ولا بلادة . وعلى شدة الالتئام فإن تعريف اليمنة واليسرة ، وعدولهما من النكرة يوحي إنزالهما على العموم والشمول ؛ إذ يفيد التعريف الجنس ، فكان الكاتب قد تقصى الحقائق واستوعب قضاياها ، ولم يترك له ركنا من أركانها إلا وقد ألقى الله عليه رواه ، وسرّح عليه نظرته ، وعلى تتبع ذلك بنى حجته وبرهانه .

وتلهمه رؤية الدقّة في عقود الألفاظ المتشابهة وحدة متماسكة «منّ وأنعم»، و«الإسلام والإيمان»، و«السنة والقرآن» إيحاء بأن الحياة السعيدة سلسلة من

الجهود المضنية تتطلب ترقّيها بالتريّث الحميد والتمهّل الحكيم ، انطلاقا من الحسن إلى الأحسن ، ومن الحميدة إلى الحُمدى ، ومن الرحم إلى الأرحم ، وإذا عاكس ذلك آثر عليه « المستقيم والمنحرف » ، و« الدعوة والدعاية » ، و« الصادقة والخارقة »، يدل على أن النفس الخيّرة إذا راودها الهدى والرشاد والصواب اطمأنت ونبذت وراءها الضلال والغي والبغي .

وجاءت مادة « ميّز » وإيثارها على « نقد » اقتباسا جميلا رائعا ملائما ، وفي تكرارها يؤكّد عقيدته الراسخة بأن ممارساته لدراسة النواحي الجميلة والأخذ بالجيد ، والالتواء في لوائه ، والنداء الدائم إليه اتجاه لا يميل عنه ، ورغبة فيه لا عنه ، وذلك بأن دعوى التخصص المحصور في بوتقة واحدة تقصير في المنال ، وخمول في العقل ، وكسل عائق للنشاط .

وعلى سداد الموقف كانت سعة كلمة « التمييز » في القاموس القرآني توحي برؤية شاملة لسائر مناحي الحياة ، كتمييز مواطن الدقة والجمال ، والشرف ، والعزة ، والخلق ، ونبذ الخبيث في الأكل والشرب ، والزواج و لنسل ، والفن .

إن سموّ عاطفة الإلوري وثقته بالموضوع الذي يعالجه واعتزازه بقضاياه العادلة ، وتبرير منهجه وشرعه يلهمه دائما أن الذوق الأدبي هدي من الوحي الإلهي الكريم ، أنزله في كتابه الحكيم على لسان نبيّه العضيم ، فجرى في النفوس المؤمنة مجرى العقيدة ، لا يحسن في مكان دون مكان ، ولا يصلح لزمن دون زمن[1] ، وكان على ذلك يهتدي في إحكام ذوقه إلى تصوير آلام الإسلام ومأساته التي يقاسيها من العلمانيين الملحدين ، جلبتها قلة مبالاة الآباء برعاية أولادهم : « أدركنا أنفسنا في عصر بحره زاخر بالأحداث والتقلبات التي تجعل الرءوس أذنابا ، وتصوّر الحقائق كذبا ، وتصيّر العماليق أقزاما »[2] ، فقد عمد إلى التشبيه أقوى ربط مناسب في جمع الحقيقة بالمجاز فذكر

---

(1) الزيات ، حسن أحمد ، دفاع عن الإسلام ، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٥م ، ص : ٤٤.

(2) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص : ٦.

الـركنين ، لأن المخـاطبين يحسـن في حـوارهم التوسـط بـين اللـين والقسـوة ، ويستمدّ غرابته ليست في حذف الوجـه والأداء فقـط ، ولكـن لروعـة الصـياغة ، فأوقع المشـبّهة معرفـة ؛ لأنهـا قـد شـاعت وانتشـر صـيتها ، والمشـبه بـه نكـرة مجهولـة غريبـة شـدة الغرابـة فـي الحـال الـذي عـادت إليـه الأرض والشـعب والتراث ، فكان المغزى من تلـك الحقـول أن الـذي قـد اعتُـرِف بعلـوّ مكانـه ، واعتُدّ بسموّ مقامه قد نزل إلى الحضيض ، وأن الحقائق التي سـلم لهـا المنطـق الحكيم سدادها وثباتها قد انعكسـت مفـترى وبهتانـا ، وأن ذا الشـهامة العظمـى ممن لا يُشقّ غباره في الضخامة البدنية والنفسية قـد باتـت في حضـيض المقـام قوة وبسالة ، ومادة وروحـا في ضـروب مـن الصـور ، فأسـند «التقلبـات» إلى النسف مجازا بالاستعارة على الإجمال ، ثم عاد إلى التشـبيه تفصـيلا ، ثـم عـاد إلى المجاز «وعواصف المخترعات تعصف» ، لأن تلك التقلبات لا تقف على حال ولا حرف ، بل متغيّر كل تغيّر : «وتنسف جبال الإيمـان واليـقين نسـفا ، لتجعلها قاعا صفصفا ، وعواصف المخترعات تعصف بالأجواء كلها ، وتحمـل معها أجهزة الشكوك والريب التي تقتلع جـذور الإيمـان بـالله اقتلاعـا ، وتجتـزّ عروق التصديق بالأنبياء من أساسها اجتزازا ، وتتخـذ الـدين وتعاليمـه هـزوا ، وتستخفّ الكتب السماوية وشـرائعها اسـتخفافا ، وتسـتهتر بأهـل الله اسـتهتارا ، وتتدفق الإمكانات كلها وراء الإلحاد والزندقة تدفقا»[1] .

وهنا صاغ تلك الهموم صياغة بديعة ، فاستعمل العامـل المنطقـي في توليـد العقل المتزن ، فأحدث دقة التناسب والقصـد والترتيـب ، والعلائـق المشـتركة ، حين استغل علم البيان ، فقدّم التشبيه ثـم المجـاز فالكنايـة ربطـا بـين الأسـباب والنتائج ، والوسائل ، والغايات ، كما استعمل العامل النفسي ، فهـو بـثّ القـوى العاطفية وتحريـك الوجـدان مباشـرة ، لأن عقيدتـه تنمـو وتـزداد فتتـدرّج مـن البساطة إلى الشدة ، والسذاجة إلى التعقـد[2] ، لأن القضـية تحتـاج إلى أسـلوب

---

(1) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص : ٦.

(2) الزيات ، أحمد حسن ، دفاع عن البلاغة ، ص : ٤٣ ، ٤٤ .

أرفع من ذلك ، فالمخاطبون لا يزال الشك يحيك في نفوسهم حيكة أخرى ينفذ إليها أوهاما تصدّ عن اليقين ، فيحيل إلى تجسيد «الإيمان» ، وهو ظاهرة معنوية في صورة إنسان قدير على حمل الديات من الأسلحة لفتاكة مدمرة شرّ تدمير ما يهواه ويستهدفه .

وتشتدّ صور المجاز عنوة وصرامة وحسما عندما يتركّب من عدّة أجرام ثقال ، فكلّ منها يشكّل قواه على أنماط مختلفة ، بل على وسائل منوّعة تنتهي إلى غاية قصوى من الخوف والرعب ، والتأثير والانفعال ، ورؤى وبصائر : « ونتاج الحضارة ووسائل التقدم تنشئ سحابا ثقالا في سماء الإيمان ، وتبعث في آفاق القلوب رعودا مزعجة تكاد تصمّ الآذان ، وبروقا لامعة تقرب تخطف الأبصار ، فخفت صوت الحق ، وتوارى وجه الصلاح ، ومات أهل المروءة»[1].

هي صورة متكاملة تتلاقى عناصرها في أداء البيان القوي تحمل ألوانا منوعة ، وحركات دائبة تعلو بعضها على بعض ، وضجائج الأصوات وما يثيرها من تساقط وتهاوٍ ، فانبعثت وحدة فنية تجلّت إبانة بأبدع وسائلها الممكنة .

وهكذا تتجلى قدرة الإيحاء والإشعاع مجلبتين الإمتاع بدون إسراف ولا إسفاف ، وخلق الفن ليكون بيانا عن عالم النفس وما يترامى فيه من أصداء داخلية وخارجية بدون اعتراض الألفاظ هذا البيان ، أو اعتراضه لها ، وإذا وقع ذلك فقد فقدت الغاية المقصودة[2] ، وأصبح اللفظ حضيضا حابيا لا يقوم ولا يقعد ، وظلّ الخيال أبراجا عاجية يغشاها الظلام .

وتعلو عاطفته النبيلة لاسترداد قوة الإسلام واستعادة مكانته حكومة وأمة وشريعة على الصعيد العالمي ، لا الإقليمي والسياسي والاقتصدي فحسب ، بل في جميع مناحي الحياة : « نعادي من رجال الأحزاب والحكومات من يعادي

---

(1) الزيات ، أحمد حسن ، دفاع عن البلاغة ، ص : ٤٤ .

(2) الإلوري ، شرح جوهرة التوحيد

الإسلام ، ونوالي من يوالي الإسلام موالاة خالية من المكر والخديعة وتربص الدوائر ، ولا يخفى مثل ذلك على اليقظ الواعي»[1] ؛ ذلك لأن الحرية ضرورة حتمية يتطلبها من ابتُلِي بالقسوة على أرضه وشعبه وتراثه ، فحقّ عليه صنع القول للدفاع والحماية عن العرض والنفس والمال .

وبناء على ذلك تجمّع لديه على أثر ما يعتمده من الإيحاءات الذوقية ، فتمكّن من قدرة الاحتكام في بناء النص الراقي الذي يحسّن المضمون ، ويغري القارئ والسامع لما يبثّه من الإحساس العميق والإرهاف الدقيق بمناط الكمال ورونق الجمال ، وكما يفطن إلى ذلك في دائرة الإبداع كذلك يستلهم الدافع القوي في تلمّس الوجوه النيّرة في وصف ما يحمله الأداء ، وقادته تلك المهارة إلى قدرة التكامل السائد بين مميزات الأسلوب .

وفي العلم يتخيّر الوضوح المفصح ، والإبانة الناصعة ليشرح الحقائق ، ويغذي المعارف ليجعله لذة العلم والعقل والذهن ، فيميل من الصعوبة إلى السهولة التي توخّت الامتناع ، يتجلى ذلك في قضايا العلم توسيعا وسماحة على المتوسطين[2] .

ويلوّن أدبه بلمسة بديعة في توليد الخيال وتوثيق العاطفة وتجميل الأسلوب بأروع الصنع ؛ لأنه يحلق إلى عنان وأجواء يرى حكم ذلك يبلغه إلى مغزاه ، فهو لا ينقل المخاطبين إلى العلم صرفا ، وإنما يلقي فيهم نباهة ونفارا وتحريضا وتحريكا حتى تتبع النفوس في القضايا الراهنة تقودها إلى الإذعان لها والاستجابة إليها ، والسعي فيها ، والتنادي عليها احتراما لأذواق المؤدّبين[3] .

ولا يلهو عن الفن فقد سابق إلى جملة من نماذج عليا من تراث القوم ، وأقام لها موازين عادلة في تحليلاتها المتضافرة ، وتجلية وجوهها النيّرة ، إذ

---

(1) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ٥٩ .

(2) ويسود ذلك في قضايا التاريخ والسير ، والعقائد والشرائع ، والدعوة إلى الله .

(3) راجع في ذلك خطبه المنبرية ، ومقالاته في منابر العلم والأدب والسياسة ، ورسائله لا سيما قصائده وعهوده .

ثبت في قلبه أن العناية بدراستها على صورة يتعارفها النقدة تبقي لتلك النصوص قيمة وخلودا . ولعل إعارتها العناية تزداد التفاتة الجيل التالي إليها ، وذلك أوقع حالا ، وأكثر مناسبة ، وأجلّ مقاما ، وأقدر على ملاحمة تحديات العدوان التي لا تزال تولي إلا أن تنكب على تراث البلاد طغيانا وبغيا مهما أتيحت لها الفرصة انتقادا وانتقاما ، تقديرا لملكة البيانيين النقاد[1] .

ثقافته الفكرية :

وأما ثقافته العقلية ؛ فنراه يرتوي ما تمكن منه في الفكر من عقيدةٌ ، وشريعة ، وسلوك على منابعه الثلاثة : الأصيل ، والدخيل ، والمستنبط ، فكان منطلقه القويّ يمتدّ مباشرة للعلامة نماج عظيم القدر في المنطق العقلي والطلاقة البيانية ، هداه إلى اعتلاء القياس عبر سلسلة من الاجتهاد والاستنباط ، ويستهدفه بما وعاه من الرأي والاتجاه،وقد أخذ الإلوريَّ على هذه السنة النيّرة، وعلّمه أن الثقافة الذهنية أقوى عنصر ما يتميز به الأديب ، لأنها منحى الوعي والعقيدة ، وبها تتحلى وجوه العلم كما كان الأسلوب يزيّنها .

ولما كتب الله له الرحلة إلى الأزهر الشريف ، وجلس لأداء الامتحان كانت العلوم العقلية من بينها ، وهي الأخلاق ، والمنطق ، والمناظرة ، والتوحيد ، وأمثال ذلك مما جاء في براعة الاستهلال لسائر تلك العلوم[2] ، ونال بموجب ذلك الشهادة الثانوية وإجازة التدريس في بلاده ، ولم يكد يعود إلى البلاد حتى تمّ نبوغه الهائل في الفكر ، وتوسعت مداركه عندما أنشأ مركزه فاستوجب عليه تدوين كتب ورسائل ومقائل لتغذية عقول الفتيان مقررات ومصادر رفعت ذلك الصيت ، فمُنح جائزة بين عباقرة الفكر[3] .

---

(1) انظر تضاعيف مصباح الدراسات الأدبية ، والإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الأولى ، وتحقيقه لصرف العنان عن طريق النيران إلى طريق الجنان لمودي الكشنوي.

(2) الإلوري ، مركز التعليم لعربي...في أربعين عاما ؟ ص: ٢٦.

(3) منحته حكومة مصر عام ١٩٨٩م في عهد الرئيس حسني مبارك .

وفي الجانب العقدي ؛ كتب لتلامذته المبتدئين «نصوص في التوحيد والعقيدة»[1]، و«العقيدة المرشدة على أسس الأئمة الأشاعرة»[2]، لأنهم مبتعدون عن ذلك كثيرا ، وأخيرا شرح «جوهرة التوحيد»[3] شرحا لطيفا ، وبذل جهودا مضنية حين عكف على أصوله من مصادر صحيحة في القرآن الكريم ، والسنة المطهّرة ، وآثار السلف الصالح ، واستمرّ به الأمر ، فعرف ما يجري لدى أصحاب الفرق الإسلامية ، وما يتميّز به كلّ طائفة من مناهج ، وقواعد ، ووقف على أسباب أدّت إلى الاختلاف والشقاق ، وعلّة زلة الأقدام بين الطوائف من إفراط أو تفريط ، وهو موقف يتراءى فيه ذا عقل مستنير ، وذوق سليم ، وتارة يوازن بين الفرق الإسلامية ، فيقابل بين مزايا ومثالب لا تسمح لطائفة دعوى أفضليتها على سواها ، ومرة أخرى يقارن بينها وبين الأمم الأوائل ورثة الفلسفة القديمة من يونان ، وهند ، وروم ، وفرس . وإذا ثبت هذا ؛ فإنّ سلاح التفكير ينبغي أن يغمد في قرابه أمام الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي ، والأشعري ، والماتريدي والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، وابن رشد ، وإخوان الصفا ، وجمهور المتكلّمين ، والصوفيّين ، وكلّ من على شاكلتهم ممن يساء في معاملتهم طعنا في عقائدهم لما يبذلونه من زلات وهفوات في الفروع الدينية ، وذهب إلى أنّ الفلسفة في قاموسها اليوناني تقابل الحكمة في المعجم العربي ، وأنها تؤدّي مغزى النبوّة في العرف الإسلامي ، ومن هنا يجدر بأن نعير اهتمامنا.مفهومها ، ونقدّر رجالها من المؤمنين ، وأن نحسن الظنّ بالمخطئين منهم ، ونلتمس عذرهم ، ونغتفر زلّتهم ، وفي ذلك يقول :

« إنّ الفلسفة في حدّ ذاتها لا تعني الجدل العقيم ، ولا التزمت السخيف ، بل إنّها تجيز حدود النظر إلى الاستدلال العقلي ، أو البحث عن حقائق الأشياء وفوائدها ، وإنّ الحكمة وما تؤديه من مغزى جليل ترد في وجوه عديدة تبين

(3,2,1) طُبع بمطبعة الثقافة الإسلامية بالمركز.

ما للعقل من مزايا إنسانية جليلة ، والقرآن دائما يذكرها مقرونة بالنبوّة ونوّه بها في قوله : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩).

والحكمة مهما يكن معناها ومهما تصدر من غير مسلم فيكفيها الحديث القائل : « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها لأنّه أحقّ بها » . رواه الثعلبي وأخرجه النووي . ومهما يكن الفرق بين الحكمة القرآنية التي يجب أن تكون بالطرف الأعلى لأنّها ربانيّة ، وبيّن الحكمة اليونانية التي يجب أن تكون بالدون ، لأنّها بشرية ، فالحكمة هي الحكمة ولو تسامح الفقهاء مع الفلسفة من هذه الناحية لما حاربوها ، كما لو عرف الفقهاء المحدثون أنّ الفلسفة هي استعمال العقل بالنظر والاستدلال ، وكان القرآن يدعو دائما إلى الفكر والتأمّل في ملكوت السماوات والأرض ، وإنما ينهي عن التفكّر في ذات الله فقط ، حيث قال النبي ﷺ : « تفكّروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكُوا »[1].

أجل ، دعا الإسلام إلى استعمال العقل والفكر في المرئيت من عجائب صنع الله في الأرض والسّماوات ، ونادى إلى استعمال العقل والفكر في فهم الآيات والأحكام دون الغيبيات التي لا طريق للعقل إليها ، وإنما طريقها الوحي والنبوة ، فنهى الإسلام عن أن يستعمل فيها العقل ، والفكر » .[2]

ولذا فإن ثقافة الأمم الماضية في منطقها ، وفلسفتها ذات أهمية خصوصا ما صفا من كتب الفلاسفة والمفكرين من أعلام اليونان ، والروم ، والفرس ، والهند ، والقبط ، والزنج ، وكلّ ما استجد من بحوث أبناء تلك الأمم المعاصرين في فلسفة التاريخ ، والهندسة ، والفيزياء ، والكيمياء ، وعلم

---

(1) رواه الطبراني .

(2) الإلوري ، آثار الفلسفة والتصوف والعلم في مسيرة الدعوة الإسلامية ، دار التوفيق النموذجية ، ١٩٩١م ، ص : ٣٦ .

النفس ، والطبيعة ، والاجتماع ، والطبّ ، والزراعة ، والاقتصاد ، مما لا غنى عنها في الحياة البشرية[1].

هكذا تنادى فنادى الإلوري إلى علوم الأوائل وأفكارها في ظواهرها ، وخصائصها ما دامت لا تدعو إلى مروق الدين والخروج على شعائره ومشاعره ، ولم يكن معتمداً كثيراً على نقول سطحية من الكتب المترجمة فقط ، بل ألم بما يعينه على فهمها مباشرة ، فنهض نهضة بارعة للردّ على خصوم الإسلام ردوداً علمية مقنعة ، ونلمس موقفه عند قوله : « وإذا كانت الحقائق العلمية لا تحارب النصوص الدينية فلا بأس من تعاطي أمثال هذه الظواهر التي توسع مدارك الإنسان ، وتحلّ مشكلاته ، وتسهّل منافعه في الحياة خصوصا ما يؤكد إيمانه بربّ الكون ، ويهديه إليه »[2].

ومن الإنصاف أن نعترف بعظمة هؤلاء المفكّرين المسلمين الذين تصدوا أمام خصوم هذا الدّين الحنيف ، والقرآن ، والسنة إذ هم لا يزالون يحاولون الطعن فيها ، والنيل منها متباهين بعلوم أقوامهم ، وأفكارهم ، وآدابهم ، وأساطيرهم ، وقصصهم حتى تضعف قوى إيمان المؤمنين ، وتسقط عظمة كلام ربّهم وحديث رسوله ﷺ ، لأنّ الاعتقاد لا يستقيم إلا بالتحاكم إليهما في سائر مناحي الحياة ، فتسلم الأسس عند بناء المجتمع الإسلامي ، ومن ثَمّ عظم تقدير ما قام به أولئك العلماء المسلمون من شجاعة ، وعقلية واعية ، ومقدرة أدبية سلمية فذة .

وبمدى هذا الفهم العميق اشتد عزمه على الاستنباط والقياس نهجا سليما نابعا من الاستدلال القوي الصحيح بعيدا عن التمحل ، والعشوائية ، لأنّ الحياة لم تعد قائمة على الجمود ، والتزمت بالتقليد الأعمى ، لاسيما هذا العصر العلمي الذي لا يقبل من الحقائق إلا ما خضع لقانون التجربة المبنية على

---

(1) الإلوري ، آثار الفلسفة والتصوف والعلم في مسيرة الدعوة الإسلامية ، ص ٢٨.

(2) الإلوري ، المرجع السابق ، ص: ٢٩ ، ٣٠.

المنطق القويم ، وقد أوجب على نفسه اغتنام هذه المعارف الإنسانية ، وعلى قناعة شديدة فإنه يلزم كل من يتصدى لحمل رسالة الدعوة أن يكون بصيرا بالعلوم الإنسانية التي تمكنه من تفسير الظواهر الطبيعية على هدى من إشارات القرآن الكريم ، والسنة المطهّرة ، اللهم إلاّ أنّه لم يك يتغافل عن منهجه التعادلي فيؤاخذ الفقهاء مسانداً للفلاسفة ، لأنّه قد حذر من إطلاق عنان التفكير والتفلسف فيما لا يعود بجدوى ، بل نادى إلى الانتهاء عن كلّ ما كان أقرب إلى التردي منه إلى الإنجاز النافع .

وتشهد أحداث صعود الإنسان إلى سطح القمر بما له من مواقف مرنة في ربط حقائق الإسلام بعوامل الكون وتفاعل الطبيعة في مجريات الحياة باعتبارها دلائل قويّة على وجود خالق مدبّر ، وهو الله جلّ ثناؤه ، وهي تغدو كذلك حجّة قويّة على صدق النبوّة والرّسالة ، والكتب السماوية من معجزات خالدة[1] ، وإذا لم يكن ذلك كلّه فإنّ مسارح الحوار الإسلامي والمسيحي في لاجوس ، وأبيكوتا ، وإلورن ، وإبادن ، وبنين(الداهومي) ، تقوى آية فيما له من ثوابت فكرية عظيمة ، وقدم راسخة في الاجتهاد والاستنباط ، حين رصد هذه الطاقات العقليّة لردود مقنعة على المذاهب الهدّامة التي تستهدف الإسلام ورسوله ، وكتابه ، وشعائره ، فانتصر الحقّ وانهزم الباطل ، وأسلمت دون إكراه وإلزام ثلة كبيرة من كنائس برمتها ، أساقفة وأتباعا ، فظلّت مواقفه وآراؤه منارة للشبان الدّعاة إلى الله ، وهم اليوم لا يزالون حلقات مماثلة للحوار الإسلامي والمسيحي ، وكان النصر فيها حليف المسلمين على التثليث ، والصليبية ، والرّهبانية

وأما في الشريعة الإسلامية فقد اهتمّ اهتماما قويّا بالبحث عن الوجود ، والآداب المترتبة من أصول الأحكام وفروعها ، والمسلمون اليوم لا يشكّون في

---

(1) الإلوري ، مقالته في ندوة الإسلام والعصر العلمي ، بجامعة إبادن ، وحلقاته في الوعظ والإرشاد ، وفي مناسبة لمولد النبوي بقصر الإمارة بإلورن ، ١٩٦٨م.

أنّ الإسلام بشمول مناهجه جميع مناحي الحياة ، نظام من الله وحيا إلى خلقه لا تبديل به ، ولكنّهم كانوا يجهلون مدى صلاحيته ، وبقائه ، وخلوده ، ومن هذا المنطلق فإنّ العناية بدراسة هذه الشعب من معالم الدّين الحنيف على مجرى الحياة المعاصرة لا بدّ أن تتبلور في عقد المقارنة بين ما شرعه الله لعباده وبين ما يعتري الموضوع المفترى من قصور وفتور ونقص ، وقد توسّع في معرفة ما يدور بين الأمم الأجنبية من نظم سياسية كالدكتاتورية ، والديمقراطية ، والديموغوغية ، والاستقراطية ، والليغاركية[1] وما يتبع ذلك من مناهجها الاقتصادية كالرأسمالية ، والشيوعية ، والاشتراكية ، وانكشف له أنّ منشأ شيوع هذه المختلقات بين المسلمين عودة عقابيل جاهلية إلى نفوس حكام المسلمين وعلمائهم من جراء تقليد السلطة الاستعمارية التي عقدت أهميتها الكبرى على العلمانية ، واعتنقها أولئك الأئمة ، والزعماء ، والرؤساء ، والملوك اغترارا ، وانخداعا ، فجلى ذلك تجلية واضحة بواسع فكره وعقله على صورة تقنع من له قلب واع ، وذكاء سليم[2].

وظاهرة الاجتماع شكّلها الإلوري رؤيته في المقياس الاجتماعي ، ذلك الطابع الوجداني الذي ينبعث عن عواطف نبيلة مثيرة الانتباه ، تهفو إليه قلوب الإنسانية فيشقى فيها حين يشيع الشقاء ، ويسعد فيها حين يشيع فيها السعادة ، ويحيا مع أفراده وجماعتهم ويشاركهم حياتهم في كدرها وصفوها ، ويستخدمها مادته[3] ، وهي القيم المثلى في تقديس الروابط العليا التي تصفو صفوة عظيمة من مكارم الأخلاق التي رسخ قواعدها النبوة والرسالة ، وتلتها الولاية الصادقة والصلة المخلصة ، وخلال ذلك يشيد إشادة بمنهج المتصوّفين

---

(1) الإلوري ، الإسلام دين ودولة ، دار التوفيق النموذجية للطباعة ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩١م ، ص : ١٨.

(2) الإلوري ، الثقافة الإسلامية ، ص : ٢٦.

(3) دكتور شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، ص : ١٩٩.

المعتدلين السنيّين مقدّرا مساعيهم المضنية ، وهممهم العالية في تربية النفوس ، وحسن استقامة ساداتهم على امتثال ما يأمرون به ، واجتناب ما ينهون عنه ، فأسلمت القيادة والإمامة والزعامة طوعا لا كرها .

وقد نحا الإلوري ناحيتين في فكره الاجتماعي ، إحداهما : جبهة العلماء والمفكرين والفقهاء والصوفيين والمبيّنين ، وتعلو هممه ليفصل الخصومة الطويلة الدائرة في الجبهة الداخلية بين المفكرين لصون كرامة العقلية الإسلامية التي هيّأها المنهج الإسلامي لمواكبة الركب الحضاري في كل مرحلة ، ولم تكن تلك الطوائف تقدّر جهود بعضها لبعض سوى شنّ الغارات الهاجمة ، ولم تنظر موطن السداد إلا مواقع الزلة ، وفضلا أن ينشروا السلام بينهم آلوا إلا أن يفشوا شرر التكفير والتلعين والتفسيق ، فأصبحت المأساة القديمة التي أغاضت ينابيع الاعتزال ، والصوفية ، والشيعة ، بدأت تعود خطوة بأخرى ، وكما لم تسلم طائفة من الزلل كذلك لم تخل من المحاسن .

واستحرّ الجدال بين الشبان في الجامعات ، وقد نشأت بينهم كتل وشعب وفرق تكاد توقد بينهم نار العداوة حروب طائفة ، وتولى يمنة ويسرة لإخماد الفتنة كان أشد حصافة وحنكة وحبكة زهر الدين الذي استقدم الإلوري في إلقاء محاضرات قيّمة[1] ، « فوعت الفكر الفارسي ، والسرياني ، واليوناني ، والرومي ، والهندي ، والقبطي ، والزنجي ، في أعمق تصوراته ، واستوعبت أدق مداخله ، في اللاهوت ، والملكوت ، والناسوت ، كان هدفهم إقرار صمود الإسلام أمام التيارات الإنسانية دفاعا واعتزازاً بما لدى المسلمين من نبوغ ونباهة ، وبناء على ذلك فإن الفرق بين الفيلسوف والصوفي حصن رقيق ، لأنّ الأوّل يطلب المعرفة من الدليل العقلي المترتّب من المقدّمات اليقينية ، بينما يميل الأخير إلى الإلهام والكشف الباطني عن طريق مجاهدة النفس وترويضها ،

---

(1) كانت كلمته موضوع الكتاب: آثار العلم والفلسفة والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية ، دار التوفيق النموذجية ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

توجّها إلى الله حتى يحصل للقلب صفاء ونقاء لما يلقى عليه الله من نور يعرف به الأشياء بالإلهام الذي لا يقبل الشك»[1].

أما فلاسفتهم فقد اعتذر لهم اعتذارا جميلا في سائر مناحي أمورهم، ويجب تقدير جهودهم، وهم الذين اصطلحوا القياس، والواجب، والمندوب، والمكروه، سواء فقهاؤهم ومفكروهم وأبيناؤهم وصوفيوهم، كانوا جميعا على تنمية مواهبهم، والناس مختلفون في الذكاء والذوق، ومتفاوتون في الفكر والنظر، ومنهم من لا يكتفون بسطحيات الأمور، بل يكشفون ما وراء الأشياء من الحقائق والحكم، وهذا عين الفلسفة، وعلى ذلك يجب تعظيم شعائر الله التي حملتهم على تلك المعارف التي نفعت ولا تزال تنفع الناس.

وأن المتكلمين من المعتزلة قد أسّسوا علم الكلام من ينبوع التفكير الإسلامي قبل نقل فلسفة اليونان إلى العربية، ثم اتصلوا بالأمم الأخرى للردود عليها فكان علمهم أضحى ما أضحى إليه فعُرِفوا به واشتهروا عليه[2]. وعلى نحو ذلك يقود ابن جني اللسانيين في حقول القياس، والاحتمال، والدلالة والمدلول، والحجة والبرهان، فخرّجه رواده وأصحاب نهجه فيلسوف الصرف، وما تبعه من الفروع العربية الأخرى، أن غدا المعنى ينفخ الروح والألفة.

وأما الأخرى فهي جبهة النساك، فقد عالج السيرة والتراجم والتاريخ والجغرافيا والفلك، وعلى عقيدته الراسخة: «وبعد، فإننا نريد من الطالب أن يلازم تلاوة القرآن بتدبر وإتقان، وأن ينظر في كتب السنة وسيرة الرسول بتكرار ودوام، وأن يدرس تاريخ الصحابة وخيرة التابعين بإدمان، ليدرك كنه سموّ روحهم وعلوّ مثلهم، ولينهل من ذلك المعين الصافي والمنبع الفياض، فإذا قارن الطالب تلك بالأمة الإسلامية اليوم يجد الفرق واضحا مع أن مقصد

---

(1) الإلوري الثقافة الإسلامية، ص: ٣٨.

(2) المرجع السابق، ص: ٣٦.

الجميع واحد ، ودستور الجميع واحد ، وربّ الجميع واحد ، ونبيّ الجميع واحد»[1]..

ولم يكن على إكثار النقل والرواية فيها ، وإنما جعل للعقل الواعي سلطانا كبيراً متّجها ببصيرته الثاقبة إلى وجوه دقيقة تؤتي التفسير ، والشرح والتعليل ، والتحليل لرموز الكون وأسرار الطبيعة مجالها من التحقق والتيقّن ، خصوصا ما غبر به الزّمان فيما انقطعت عوامله وملابساته ، وأحداث أخرى نجمت على الأمّة عندما شوّه الاستعمار الإنكليزي تاريخها . وفي ذلك يقول : «وعلى دارس التاريخ أن يناقش المتواتر المعتلّ لا سيما الآحاد ، وأن يعرض المتواتر على العقل السليم ، قبل أن يقبله إذا لم يعرض من قبل»[2] . وقد تمسّك بهذا المبدإ وطبّقه تطبيقا فيما عالجه من قضايا تاريخية ، وفنّد ما نسجه الخيال من عالم الأوهام والأساطير ، وتوصّل إلى ما يراه حقيقة واقعية[3] ، يعد رائد موضوع لما كتبه من مصنّفات ، ورسائل ، ومقالات ، لا سيما تلك الجهات التي لم تحظ في سابق الأوان باهتمام الباحثين ، أو ما شكّك الناقدون في حقائقه بغلبة رواية تجّار المفترضين والمرتزقين ، وراعى مراعاة قديرة ووزّع دقة توزيع ، فأنزل المرحلة الأولى للتاريخ الإسلامي منذ صدره الأول ، ووضع في الوسطى منطقة غرب إفريقيا وما حولها من البلاد والمدن والقرى ، وعالج الفلك وشرحه شرحا دقيقا مبيّنا مواقف العلماء في المجموعات الشمسية ، وكميتها ، وتأثيراتها في الخلق ، والكون والطبيعة ، على سنن أشار إليها القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهّرة ، وتوسّع في تفصيلها فلاسفة لإسلام البارعون

---

(1) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ٢٢.

(2) الإلوري ، الإسلام في نيجيريا وعثمان بن فودي ، وموجز تاريخ نيجيريا ، ط١ ، ١٩٦٤م ، ونسيم الصبا في أخبار الإسلام وعلماء يوربا على طبعاته المختلفة ، ولمحات البلور في مشاهير علماء إلورن ، مطبعة الآداب بالجماميز ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(3) الإلوري ، الدين النصيحة ، ص: ٢٢.

نافذا إلى القول : « إنّ العلم بالآيات الباهرة دليل واضح على وجود خالق مدبّر ، وهو الله جل ثناؤه[1].

ثمّ واصل مهمته في قضايا الجغرافيا موضّحا آراء الفلاسفة في كروية الأرض ، وتقسيم مناطقها وحدودها ، وما يتعلّق بالمناطق ، وأحوال الجوّ ، وما ينتج من حرارة وبرودة ورطوبة ، وذكر البحار والأنهار ، والوديان والبركان ، والجبال والرواسي ، والهضبات ، وفاعلية الجوّ في الألوان والطبائع ، والعادات[2] ، وناسب الكتابان موضوعيهما إذ ارتَجَّ الجدال بين العلماء والتلامذة وسائر الناس أجمعين عقب صعود الإنسان على سطح القمر ، فأثار جدلا صاخبا بين المؤيدين والمنكرين ، وسلّط الإلوري أضواء خطبه ومواعظه على الموضوع ، فأتى قناعة كبيرة لدى الجماهير وبرزت مكانته .

والواقع أنّ هذه البحوث العلمية القيمة تتجلى ، وتعلو في التفاتات طيّبة أثرى بها مكتبتنا العربية ، وخاصّة ما يتعلّق بصقل تصوّرات كثير ممن جهلوا الجغرافيا الوطنيّة دون المستوردة ، وقلّما تنمو ثقافتهم في تراث آبائهم ، وأمجاد بلادهم ، وخاصة أولئك الفتيان المسلمين الذين يلقون تلك الحقائق مشرّدة بين الشوارع ، وقلائد خالية عن الأعناق ، وأسورة فاقدة الأيدي ، إذ لم يستطع علماؤها أن يربطوها ما قرّره كتابهم الحقّ وسنة نبيّهم الصادق .

وليس بخاف أنّ شيخه نماج قد فتح له أبواب هذه البحوث الاجتماعية على مصراعيها كما سبق،اللهم إلاّ أنّ ما قام به من جهوده أكثر شمولا وعمقا ودقّة، على نحو ما رأيناه متوسّعا في فروع علم النفس ، والاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، وطبقات الأرض ، فوعى ظواهر لم تكن صورتها متّضحة لدى سلفه ، أضف إلى أنهما يختلفان في تناولها حيث كان أستاذه ـ رحمة الله عليه ـ يميل إلى

---

(1) الإلوري ، الفلك والنجوم ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، ط١، ١٩٨٢م، ص١٢.

(2) الإلوري ، الجغرافيا والتاريخ ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، ص : ٢٠.

استخدام الفلسفة من الناحية القلبية التي تؤتي معاني دقيقة عن حب الله ومعرفته ، والنزوع إليه في كلّ أمر ذي بال ، حتى تتجلى له من هذه المظاهر النفسية حقائق اللاهوت ، والملكوت ، والجبروت ، والناسوت . فيسمع ويرى ويعرف من آيات الله البهية ما تنعكس آثاره على ظواهر الكون ، واستخدام طبائعه في منافع العباد وفق ما حدّده الإسلام للإنسان معالم واضحة دقيقة حين بيّن له ما يقدر عليه عقله ، وإدراكه ، وما لا يقدر خشية الغواية[1] ، بينما ينحو الإلوري مرة أخرى إلى جانب العقل الذي يحلّ رموز الكون ، ويبيّن علل مضامينه التي خلقها الله للأنام ، وهداه إلى استغلالها والانتفاع بها في مناكب الحياة المختلفة ، وبهذا تعظم قوة البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة على وجوده وعظمته ، وكبريائه ومعرفته على هذا المنهاج ، تعين على فهم التوفيق بين الحقائق الدينية والعلمية ، إذ لا تعارض بينهما[2] .

والمقطوع به أنّ كلا العالمين لا يكادان يختلفان من حيث الغاية والهدف إلاّ في الوسيلة ، وهو اختلاف ترجع علته إلى الظروف التي مرّا بها ، فقد عاش الأستاذ في مطلع عهد الاستعمار وآخر عصر الجهاد ، حين لم تزل آثار مجد الإسلام باقية ، وهو حينئذ يحتاج إلى فئة من التلاميذ النابهين تغنيهم التوعية لإنهاض الأمة ، فيزول الركود الذي دبّ على يدي الاحتلال في الأمّة قبل أن يفحل أمره ، ويحمد لنماج هذا الأداء الخيّر ، بينما قضى تلميذه عمره في عصري الاحتلال والاستقلال ، وشاعت البلايا ، فعاد الأمر إلى حيث بدأ وعندئذ رأى أنّ حاجة معاصريه تشتدّ إلى إعادة بنائهم وتقوية عزائمهم على هدى من الخطط السليمة ، وأنّ أنسب المقام هنا إيقاظ العقل ، وإعمال الذكاء ، ونتيجة هذا برز الإلوري غزير المادة ، واسع المعرفة ، ثري الفكرة ، تأخذك

---

(1) الإلوري ، نظام التعليم وتاريخه في العالم الإسلامي .

(2) الإلوري ، فلسفة التوحيد .

روعة مؤلفاته في موضوعات هذه العلوم الفياضة الواسعة العميقة التي يحتاج إليها مجتمعنا الإسلامي الحديث احتياجاً عظيماً ، علما بأن تلك المجموعة الهائلة ستبقى بحق دائرة معارف إسلامية معاصرة ثراء ، وعمقا ، وقوة .

ثقافته الأدبية :

وفي ظاهرة الإبداع تُعَدّ ثقافته الأدبية أوفر ثروة اكتسبتها حياته العقلية ، فضاعف في تحصيلها جهوداً مضنية ، ونمّى في أغلب المواقف موهبته البيانيّة ، ودرّب في أدقّ المواطن ذوقه ، فذكت ملكته البلاغية ، وقويت قوّة مكّنته من الانطلاق في كلّ ضرب من ضروب الإنتاج والإبداع .

والمعلوم ، أنّ الأدب بمدلوله الاصطلاحي المعاصر من جيد المنظوم والمنثور ، لم يكن شائعاً في المنطقة خلال سابق العصور إلاّ ما يعالج قضايا الأخلاق ، والقيم ، والمثل التي تجلوها نصوص راقية مقتضبة من القرآن الكريم ، والسّنة المطهّرة ، وآثار السلف الصالح ، وما يبيّن مقاصدها من تفاسير ، وتحاليل ، وتباين كثرى مضافة إلى نماذج حية من نصوص مختارة عالية تقوّي الأساليب من عيون الأدب على مرّ العصور الذهبية ، وأعلامها البارعين ، ونقدتها النابهين ، وما سمح به الحال في واقع بلادهم من مصادر قويّة ، اللهم إلا أنّهم يحصرون جميعها في الأخلاق ، والمثل ، ويعلم أنّه أجازه الأزهر الشريف في عدّة مواد بعد اجتيازه الامتحان الشفهي قائم بمنهج منتظم على ما عرف المصطلح الحديث ، وأنه صقّل ذوقه صقلا بديعا عند وفادته على الأقطار العربية الأخرى ، فتهيأت له فرص سعيدة للاطلاع على عديد من مصادر أدبية نادرة ، وهي عهدئذٍ قد وظّفت توظيفا دقيقاً متّضحة معالمها وميادينها من تراجم ، ونصوص ، وبيان ، ونقد ، وأثناء ذلك شهد حركة المحاكاة ، والتقليد ، والتجديد ، والتحديث التي قادها البارودي ،

وشوقي ، وحافظ إبراهيم ، ومطران ، وإبراهيم شكري ، والرصافي ، وشعراء المهجر ، وتأثّر بالمعارك الأدبية التي أثارها طه حسين ، والرافعي[1] ، وما اقتبسه من منابر الأزهر الشريف على أيدي أئمتها المصاقع من ملح الخطب ، ونوادرها ، ونواردها ، وما حظي من عضوية فعالة في المؤتمرات والندوات ، والحلقات ، والمجامع ، وعقود التنادي ، والمواسم ، والزيارات ، والملتقيات ، وما تبثّه الجرائد والمجلات والحوليات تقلّها حوافل خضما من كنوز الثقافة والعلم والمعرفة والأدب والفكر والبيان على مدى الأيام والشهور والفصول ، تتسابق إليها هيئات تجمّعية ، ومراكز ، ومعاهد ، وجامعات في الحقول الأكاديمية وما عقده كثير منها معه من الحوار الصحفي ، كلّ هذا وذاك دعّم ثقافته الأدبية ، وجعله على بيّنة مما في هذه الفنون من خصائص ومميزات ، فجاءت قصائده وكتبه ، ومقالاته ، وخطبه ، ورسائله صورة تطبق بجدارة عما لدى صاحبها من حسّ مرهَف ، وقدرة على صياغة أنماط جيدة من الكلام الذي يواكب روح الحياة المستجدّة ، ولا بأس إذا اعتزت به مكتبتنا العربية المعاصرة لهذه الثروة الأدبية العظيمة .

---

(1) حضر الكاتب كثيرا مما كان يعرضه عما شهده من تلك المعارك النقدية خلال حلقاته ومحاضراته ١٩٦٨-١٩٧٤م ، و١٩٧٨-١٩٨١م ، وكثيرا ما يتمثل بالأبيات التالية :

اسفنجة جاءت لشرب البحر وشمعة ضاعت لشمس الظهر

والشيخ طه في انتقاد الشعر ثلاثة مضحكة لعمري

انظر إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي ، تحقيق عبد الله المنشاوي ، مكتبة الإيمان ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ ، ص : ٩٩.

والشيخ طه في انتقاد الشعر ثلاثة مضحكة لعمري

أناطت رقّ الإلوري صناعة الثقافة النثرية قلادة فاخرة توارثها عن جدّه الأعلى عبد الله الذي يقصّ عن أنبائه الرواة أنه من خيرة الأذكياء العقلانيين ممن يستعين بهم آل حيّهم الأدبي والسياسي والاجتماعي في فصل الخصومات بين المتنازعين ، فيديرون خلالها رحى النثر الفني من حوار ، ووصية ، ومثل ، وحكمة ، تنقلها عبارات وجيزة مركزة بدقة متناهية ذات أفكار موسومة بالمنطق السليم والجدل الحكيم سارحين أنظارهم في مواطن الظلم والجور والبغي ، فيقابلونها بالإنصاف والعدل والمساواة ، ويكلفهم ذلك تتبع واع في سلسلة أيام الملوك والحكام والقادة ، والأغنياء ، انتصر فيها المظلوم على الظالم ، ومنه نشأت بوادر الخطب التي جرت في الإلوري عرقا دسّاسا[1] ، ولما جاءه عهد النبوغ الخطابي تأثّر بأعلام الخطباء من أئمة الأزهر كالمراغي ، وعبد الرازق ، وفي الجو السياسي سعد زغلول ومصطفى كامل ، وفي الاجتماعي قاسم أمين ، وفي الوعي الإسلامي الإمام الحسن البنّا ، كلها روافد غذّته صناعة الخطبة ، إضافة إلى ما يفرزه من قوى المنطق والنفس والبيئة ، التي توثّق الدواعي بين المتكلم والمخاطب والحال ومقتضياتها ، والحدث والزمن ، ولما أنشأ جامعه ١٩٥٨م عُنِي بصناعة الخطب العذارى لتجديد الحياة الأدبية وتدريب طلابه على تذوّق جمالها وتكوين عناصرها على أنماط عليا ذات قيم مثلى ، فكان منبره موئلا مكتظا بالحضور بلغوا أربعة آلاف في كل جمعة ، وقد جمع طائفة من تلك الخطب الأخ صديق فاروق بعنوان : مختارات من توجيهات المنبر ، ١٩٩١م ، كما نبغ على يديه من تلامذته وأبنائه وأتباعه ومعجبيه خطباء منابر مختلفة مصاقع أبيناء أدباء منشئين ومبدعين واصفين .

إن تلك السفارات التي يضرب فيها ذلك الجد الأعلى أكباد الإبل بين أمراء إلورن وملوك أويو قد ألهمته صناعة الرسائل الديوانية ، وما يحكمها من قواعد

---

(١) راجع : مركز التعليم العربي الإسلامي في أربعين عاما ، ص : ٢٣ .

وضوابط في تحديد المناطق ، وتنصيص العلاقات ، وإسفار العقود التجارية ، وميزة الطبقات البشرية ، وإشاعة الفنون القولية ، وكان ذلك قبسا وهّاجا لحفيده ، فتكوّن لديه شعب الرسائل الثلاث مهارة وصناعة ولباقة ورشاقة[1].

وفي أيامهم الإسلامية المجيدة كان الوالد عبد الباقي يغشى أنماطا من الحلقات والمنتديات والمحافل والمعاهد ، ويحظى بها حظوة بالغة من نوادر القول ، وبوادر الكلم ، وثواقب اللسان ، وقد أثّر ذلك في الإلوري ؛ إذ كان يصطحب أباه إلى تلك المناهل ، وما أكثرها اكتظاظا بمنوعات ثقافية من تعليقات وستدراكات وفتاوى وتحليل وغيرها مما تحمله قدرة بديعة معجبة بفكرها وأسلوبها . وإذا كانت أداة التعبير شعبية ، فإنها متحلية بسنن العربية وتقاليدها في وضوح اللفظ وسلامة التركيب ورونقة البيان ، فلا غرو في ذلك فقد مرّن هذا اللسان الاقتباس الظريف تمرينا جميلا وافيا بالغرض ، لأنه من لهجة أويو التي تعدّ أقوى فصاحة من سائر لهجات يوربا ، ليست مغرقة في بداوة النخوة ، ولم تغزها غواري الحضارة ، ثمّ إنها دخلتها مفردات قرآنية وصقلت صقلا ، وأهّلتها روعة البيان .

وتعَدّ ثقافة الشتعر عنصرا متميزا من أدقّ المعارف والعلوم ، وإذ هي لا تحصل بالأصول ولكنها تتحقق بالمهارة والذوق ، وتحمل وظائف وخصائص في المعاني والألفاظ ، والعاطفة والخيال ، والأوزان والقوافي : « فالألفاظ هي لغة الأديب التي يستخدمها لما يريد أن يعبّر به عما تحيّز في صدره من المعاني والخوالج ، فاللفظ للمعنى كالجسد الذي يهب الروح حقيقة الوجود ، ومنه ما يقبله الشعر ، ومنه ما لا يقبله بالسهولة »[2] .

---

(1) الإلوري ، حصاد المناسبات الإسلامية ، جمعه وقدّمه الإمام الخطيب محمد حبيب الله آدم عبد الله ، دار الفجر الإسلامي ، لاغوس ـ نيجيريا ، ط١، ١٤٣٠هـ ، والإلوري ، مواقف متوسطة.

(2) الإلوري ، لباب الأدب ، مراجعة ومزيدة عبد الباقي شعيب ، ط٢ ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ، ١٩٨٠م ، ص : ٦ .

ويولي عناية الرونق الفاتن والزينة المعتدلة بالشعر ميزته على النثر : « ولكل غرض لغة تلائمه في الفخر والهجاء والرثاء والغزل . فالرثاء والغزل يلائمهما السلس الرقراق والأسلوب السهل الممتنع ، كما أن الفخر والهجاء يلازمهما الألفاظ الجزلة القوية والأسلوب الرصين الممتع ، وما قيل في هذه الأغراض يصدق على أخواتها لتتوفر الملاءمة بين اللفظ والمعنى »[1] .

المعاني « وهي أرواح الألفاظ والأغراض الباعثة للشعر والأوصاف التي تنقل حقيقة الصورة من نفس الشاعر إلى نفس السامع ، فتبعث في النفوس ثورة أو سكونا ، رضا أو غضبا ، طربا أو ترحا .

ومن العلوم التي تساعد على تحقيق المعاني الشعرية التشبيه والمجاز والكناية في علم البيان، ومن العلوم التي تساعد على تحسين الخيال الشعري المحسنات المعنوية في علم البديع ، وبهذه المميزات يرتفع معنى الشعر عن النثر ، إذ اعتماد الأول على الخيال والعاطفة ، واعتماد الثاني على العقل والحجة والمنطق . والشعر الجيد هو الذي يجمع بين جودة الأركان الثلاثة ، وكل شعر نقص شيء من ذلك فهو شعر مرذول مبتذل رخيص يدلّ على عدم النضوج »[2] .

ويتحدث عن الأغراض والفنون وما يميّز كلاّ منها : « وهي البواعث الدافعة إلى قول الشعر ، والدواعي التي توحي المعاني إلى الشاعر ، وهي متعددة بتعدد الحياة ، وأهمها : النسيب ، والفخر ، والهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والزهد ، والوصف ، والحكمة . وقد نشأت تلك الأغراض نتيجة العواطف والانفعالات التي تضغط الإنسان وتضطرّه إلى التعبير عنها ، فالغضب مثلا ينتج الحماسة والفخر ، والإعجاب يولّد المدح والوصف ، والحبّ يحدث النسيب

---

(1) الإلوري ، لباب الأدب ، ص: ٦.

(2) الإلوري ، المرجع السابق ، ص:٧.

والغزل ، والبغض يخلق الهجاء ، والحزن ينشئ الرثاء ، وكذلك الطرب يوحي بالفخر والثناء»[1] .

ومن جملة الاعتبارات القيّمة التي يراعيها في تجاربه الأدبيّة الموسيقى من عروض وقافية ، وما يتبعها من أشكال خارجيّة ، وداخليّة ، مما يشدّه شدّة قويّة للإقناع الصوتي الخارجي ، أو الداخلي في شعر كان أو في نثر ، لأنّ توالي الحركات والحروف التي تسير على وتيرة واحدة يثير قوة الوجدان والانفعال ، ويواكب روح المعاني ، ولم يك يراعي هذه الحدود الموسيقية في تضاعيف إبداعه في ظاهرة نظرية فقط ، بل تتجلى وجوهها المكثّفة من تطبيقاته الرائعة ، فأصبحت له اليوم إحدى ميزات منهجه الدعوي ، والتربوي ، لاسيما عنايته بالتغني بالقرآن مع حسن التأدّب له ، والتنسّك في عرضه وسرده ، لا جرم في ذلك ما دام قد تأثّر بعظمة الإعجاز القرآني المتمثّلة في الأداء الصوتي ، وكان قصده دقّة التناسق بين الفكرة ، والأسلوب ، والموسيقى .

ويؤكّد مرتبة الغناء ومكانته عند أداء الشعر وصناعته : « والشعر والغناء توأمان لهذا قيل :

تغنَّ بالشعر إذ ما أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وقديما كان الشاعر هو المغني ، ثم استقلّ الثاني عن الأول ، فأصبح كالراوي له ، ومع هذا المفهوم الجديد ما زال الفرق بين الشعر والغناء يسيرا ، إلا أن الشعر تعبير عن الشعور والعاطفة ، وتصوير الخيال بالألفاظ الجميلة ، بينما كان الغناء تعبيرا عن إنشاد الشعر بالنغمات المستعذبة والألحان المطربة ، كالفرق بين الإنشاء والإنشاد»[2] .

* * *

(1) الإلوري ، لباب الأدب ، ص: ١٠.

(2) المرجع السابق ، ص : ٥.